عيون المعاصرة

توفيق بن بريك

كوزكي

تقديم

حسين الواد



دار الجنوب

عيون المعاصرة

يدير هذه السلسلة توفيق بكار

كوزكي

«مَرْوِيّة»

توفيق بن بريك

كوزكي

«مَرْوِيّة»

تقديم

حسين الواد

دار الجنوب

المؤلّف : توفيق بنِ بريك
عنوان الكتاب : كَوَزَكي
لوحة الغلاف : Z
الخريطة 1 : شادي العبيدي
الخريطة 2 : Z
الصورة الفوتوغرافية للمؤلّف : أوليفيي تورون
الناشر : دار الجنوب
شارع خير الدين باشا - عمارة «المونبليزير»
الطابق السادس - B-63
مونبليزير تونس 1073
الهاتف : 850 903 71 - الفاكس : 857 903 71
البريد الإلكتروني : contact@sudeditions.com
موقع الواب : www.sudeditions.com
Sud Editions
ر د م ك ISBN : 978-9938-01-077-0
الطبعة الأولى

تقديم السلسلة

أن نتجذّر في العصر ذلك ما يأمرنا به واقعنا العسير . وإنّنا ما لم نَستجِبْ لهذا الأمر فنتشبّع بروح الحاضر لمشلولون سياسيا وحضاريا عُجّزٌ أمام التحدّيات القاتلة. وليس مآلنا أن نكون مطمعا للاستعمار الجديد يفترسنا بضراوته التكنولوجية أو متحفا اثنولوجيا لإمتاع متذوّقي العتيق أو لوحة فلكلورية لتسلية السواح. فلا بدّ أن نُعَدِّل حياتنا على ساعة العصر حتى نخرج من سلبيّة المفعول به ـ تاريخيا ـ إلى ايجابيّة الفاعل ونثبت حضورنا دوليّا وعلى حدّ السّواء في مراكز النّفوذ ومواطن الخلق، خلق الأشياء والقيم والعلوم والفنون. فهو شرط وجودنا الأكمل في هذا العالم الذي نحن منه ولا نملك اليوم أن نؤثّر في سيره بملء وزننا. فَلْنخترع أنفسنا من جديد، وإنّه إن اقتضى ذلك منّا أن نخلع عنا الرجل القديم فلا يقتضي أن ننسلخ من هويّتنا لِنغتربَ في الآخرين. فالحداثة أن نستوعب أسباب التقدّم في كافة المجالات حتى ننّمي مجتمعاتنا تنمية شاملة ونفجّر فيها طاقات الخلق المدفونة تحت ركام الفقر والظلم والعدوان، بحيث نصبح قادرين على المساهمة الناشطة ـ بطرافة شخصيّتنا ـ في صياغة مصير العالم .

هذا الاهتمام الـمُلِحُّ هو الذي أملى على دار الجنوب للنشر أن تُقْدِمَ

بِفُتُوَّتِهَا على إصدار سلسلة خاصة تُعنى بنصوص أدبنا الحديث وتحمل اسم «**عيون المعاصرة**» بكل ما في «العيون» من الإيحاءات.
فعلى مدى قرن من الوجود -انطلاقا من أوائل النهضة إلى اليوم ـ قام الأدب العربي الحديث ـ نصّا بعد نصّ ـ صرحا من الكلام نَحَتَهُ الذهن العربي على تعاقب الأجيال من تطلّعاتنا وتراجعاتنا وانجازاتنا وخيْباتنا وثباتنا وحيرتنا وصوابنا وأخطائنا في مواجهة المصير منذ أن أفَقْنَا بين الأوجاع على عنف التاريخ. وهو أدب يخبرنا عن نفسنا في مسيرتنا المتعرّجة خلال الزمن الحديث متى عرفنا كيف نُحْكِمُ معه الحوار واستطعنا أن نستمدّ منه ـ جدليا ـ ما به نواصل بأكثر استبصار وجدوى طريقنا نحو مجتمع مُتقدّم.
و ستهتم «**عيون المعاصرة**» بما اشتهر واستقر من تآليف كبار أدبائنا وبما هو جديد من عطاء الحاضر المتدفّق فَتُقدّم لكل نص تنشره بمقدّمة من إنشاء خيرة نُقّادنا ـ مغربا و مشرقا ـ تكشف أبعاده وتوظّفه ـ قوّة فعّالة ـ في صراعاتنا الراهنة من أجل وجود أفضل.
و«**عيون المعاصرة**» آفاق طليقة لا يَحُدُّها حدّ إذ هي مؤمنة بحُريّة الخلق والتعبير مُتفتِّحة على رياح الفكر العربي أينما كان المهبّ ولا تشترط في الإنتاج إلا أن يكون من صميم الإبداع وفي صميم القضايا يُثري شخصيّتنا ويدفع إلى الأمام. فتلك عقيدتها وهو التزامها الوحيد، وستفي.

محمد المصمودي **توفيـق بكـار**

تونس 1979

المبدعون...أيّهم «لم يكن صعبًا قيادُه؟»

رجل، في الأربعين، على «شدَنِيَّة» غير «وَجْناء»[1] فهي من «حديد ونار»[2] من صنع اليابانيين، تطوي به المسافات «طيًّا» لا بالمُشتهَى أو المحمود، فهو، في ما يزعم، يمضي «إلى غير مهم» من «طاطاوين» إلى «محطة سيدي حمد الصالح».

المنطلق «غير مهم» مثلما هي «غير مهمة»، وإن لم تكن في الحقيقة كذلك، نقطة الوصول. فهل في لفظة «طاطاوين» وتقليباتها ومشتقاتها واختصارها وتقطيع مفاصلها وأوصالها ما يرفع عن المسمّى بها سِمَات البذاءة والعفن؟ وهل في محطة «سيدي حمد الصالح» صلاحٌ يُحمد أو سؤدد يُطلبُ أو خير يرتجى؟

بلاد «طاطا»، وقد ناءَت، من عرش «طاطا»، سنين كثيرة إلى أن «قامت القيامة» واندكت معالمه، بما يسوء ويشين فطال بأهلها الهوان وعمَرَها الخرابُ وخيّم الذل، «مهددة بجحافل التتار». ومحطة «سيدي حمد الصالح قرية فلاحية من معتمدية القلعة

1 - إشارة إلى بيت مطلع بقصيد لأبي تمام
يا مُوضِع الشدنية الوجدناء ومصارعَ الإدلاج والإسراء
2 - ما بين علامات التنصيص «...» مستمد من النص

الجرداء (الخصبة حسب بورقيبة) على بعد مائتي كيلومتر من طاطاوين»، بها «الوديان ناشفة والأرض شهباء والشمس بيضاء كنار فرن، لا دولة ولا معتمدية. العالي نساها (...) أولاد سيدي حمد الصالح بطّلوا يوكلوا، لصقوا للحجر، كـ الحجر، حتى الشجر ولّى حجر، الماء حجر، الهواء حجر، السماء تحجر بـ الحجر، العباد استهوشت. الكلاب كلاب والعباد أقل مـ الكلاب».

على هذا النحو يستعرض الكلامُ الذي يغمُرُ «راكبَ كوازكي» أو يصدر عنه الوقائعَ والأشياء. فبين المنطلق ونقطة الوصول مسافتان في الفضاء وفي الوجدان ينهب في الأولى منهما هذا «الوحش الأسود» المراحل عبر ضاحية منوبة ومجاز الباب وتستور وتبرسق والكاف وطاجروين ويتناهب الكلامُ، في الثانية، راكبها مستحضرا صورا نبذا ممّا تأذى به وكابده وشهده في ظل عرش طاطا ونتفا ممّا جنت على نفسها البشرية، في طاطاوين وغيرها، أو حدّث به عنها حُداة أظعانِها في المهزوم والتافه المخزي من ملحمتها مع بغاة العالم وزناة التاريخ.

تطوي كوازكي المسافات رامية وراءها بالحصى الصغير فتهجم الخواطر على راكبها من كل صوب، من ذاته الغاضبة والأماكن التي يمرّ بها وممّا يحمل في كيانه من كلام. خواطر

لا مهرب منها ولا مفر لهذا الأربعيني الرابض عليها «مقوس الظهر، مرفوع الرأس». هل لقاطع المسافات وحيدا من أنيس سوى الكلام؟ لكن أيّ كلام يمكن أن يهجم على تارك طاطاوين موليا وجهه محطة سيدي حمد الصالح لشأن «غير مهم» وإن لم يكن في الحقيقة كذلك؟

إنه كلام بلا ضوابط يتّصِف، على لسان صاحبه، بأنه «هذيان» حينا وحينا «هذاء» أو «هلواس». ليس بين المخاطِب والمخاطَب في ما تهتف به الذات لنفسها فواصل أو مسافات أو متكلم وسامع أو مقال وموضوع، بل ليس فيه سوى ما القلبُ المكلومُ عارفه.

في هذا الكلام إشارات كاللمع تشعّ، بين الحين والحين، لتصنع لشخصية الجاثم على «كوازكي» معالم باهتة تمرّ عفوا مثلما تمرّ المشاهد مثقلة بالوله والشواهد والاستشهادات منبعثة من القراءات والوقائع التاريخية والأسطورية. فـ«همام»، وهو الاسم الذي يحمل، معلمٌ « بمدرسة النور الابتدائية بدوار سيدي حمد الصالح ، قرية فلاحية من معتمدية القلعة الجرداء»، تزوج «مهرية الزغلامي، ابنة عمه عمار» وأنجب توأما. وهو «آص» في «التشقليب وتدبير الرأس» يتقاضى ست مائة دينار شهريا ويصرف أكثر من ضعفيها. وهو مدمن قراءة وعاشق فنون.

يكره الأغنياء متسائلا عما إذا كانوا كأيها الناس، و« يشتهي رأس غنيّ مصليّ» ويلعن الفقر ويمقت «السلطة»، مسكون بالأسئلة يرمي بها غير منتظر جوابا. كل شيء جميل، حَوْله، تحوّل إلى مسخ بشع، مقرف ومؤذ. فالكاف «لم يعد كافا» وطاجروين «هوش وضجر». وعمار أصبح «خرقة»، «جمرة وانطفأت»، و«نعل بو ها البلاد إلّي تبدّل الرجال».

يرى همّام العالم حواليه لا كما هو وإنما يبصره، بالبصيرة والبصر، مثلما يحسّ به وقد يَعيه ... !، وعيًا شقيًّا، ملوّنا بلون الثقافات التي يحمل متماهية مع الأحاسيس التي تضطرم في وجدانه. إنه يتساءل أو يسأل كوازكي أكثر من مرة قائلا : «هل أنا فريد أم عادي؟»

الكلام الذي ينبعث منه أو يهجم عليه من كل صوب وحدب ويمسك بتلابيبه رغم السرعة الكبيرة التي تزأر بها «كوازكي» في مستقيم الفضاءات لا منطق يشد أجزاءه بعضها إلى بعض. لكن ألّا نتكلم (أو ألّا يتكلم فينا الكلامُ) منطقيّا لا يعني إطلاقا أننا لا نفكر تفكيرا عقلانيا. فوراء المنطق، والمنطق دائما مشغول بترتيب العلاقات بين مقدمات ونتائج لم يُسهم في صوغها، عوالم لا يجرؤ على ارتيادها، فهي مفتوحة على مراس للحرية محجوز فيه من الخطر ما فيه من المخاطرة.

غير أن بين ما يعتلج من الكلام في الصدور وما يجهر بِنطقه اللسان فروقا واختلافات. الذي يعتلج منه في الصدور أو يختلج أو يضطرب ويضطرم ، وأيّ الصدور بلا بلابل؟ موفٍ، غالبا، على التمرّد على التنظم والتنظيم ومقت «السيستيم». أمّا الذي يجهر بنطقه اللسان فمسيّج، دائما، بالاحتراس والاحتياط والسياقات والمقامات والأقدار والغايات الخفية والقدرة على الفهم والتخريج. العفوية الحرّة والتلقائية المنعتقة من قيود التكلف والحرج يقابلها التعمّل و«التَرَهْدِين والتلهويث» والختل والغدر والنفاق. وابحث تحت هذا الركام عن معنى، فقد لا تقبض على غير الرياح .

الكلام؟! من اللحظة التي قطّعت البشرية فيها صرختها أصواتًا والجرحُ في الصرخة والصوت نازف. ومن اليوم الذي ضَمّت فيه الأصوات بعضها إلى بعض لتصنع منها آلة جهنمية هي اللغة والكلام وهي منصرفة إلى العوالم التي صنعت وتصنع عن العوالم الموجودة أمامها عيانا ملموسا تريد أن تحشو الواقعَ في ما تخيطه له من تصوّرات. انقلب المصنوع على الصانع والمصنوع من أجله فإذا هو متسلط أكول. اشتغلت الآلة فلم يعد من يقدرعلى إيقافها أو التحكم فيها. مَن من الناس يستطيع ألا يتكلم؟ من يقدر على إيقاف التهام الآلة له؟

مَن يستطيع ألا يلتهم بها سواه؟ إنّا لنتكلم في اليقظة والمنام بالصوت وبالصمت. نتكلم صدقا وكذبا وهذاء أشدّ فعالا من الصدق والكذب.

«في البدء» كان الكلام. كان «منطقا» «لوغوس» ووحيا وتنزيلا «بلسان عربي مبين» وكان، من بين ما كان أو صار إليه، أحاديث تروى ونصوصا تبتدع ووشايات ترفع وتقارير تدبّج ومؤامرات عالمية تحاك وتدبّر، و«نظاما» للتخاطب والإبلاغ ولا تخاطب أو بلاغة وإبلاغ إلا ما كان في خدمة «العرش» تهاليل ومدائح سائرات.

لكن الكلام، وقد أوجدته، حسب كثيرين، «المجاورة للمحاورة»[3]، انفتاح أيضا. انفتاح الذات على نفسها وخروجها من قوقعتها إلى الآخر والكون من الحِمَم المضطرمة في قلب الأرض إلى الكواكب في مجرّاتها وما فوق السماوات... ولا رهان سوى أن يظل العالم قابلا لأن يستمرّ فيه وجود النوع البشري على نحو أكثر يسرا ورفاهة وكرامة، وإن كان قد بطل، اليوم، الرهان.

هذا الانفتاح يتخوّف منه أصحاب «العروش» على «عروشهم»، يخشونه ويستوحشون منه ويتوجسون شرّا.

3 - منهم الشيخ الرئيس ابن سينا مثلا

فالنظام إذا انفتح لم يعد نظاما. وإذا جميع مَا ينتهي إليه الانفتاحُ يعدّ، من قبْل أن يُعرف أو يُختبر، «شرّا في المطلق»، فليكن إذن الانغلاق ولتكن الحواجز والجدران العازلة (من جدار الصين إلى جدار إسرائيل بصرف النظر عن آلاف الجدران الأخرى المرئية وغير المرئية) والسياجات المكهربة والرادارات والأقمار الصناعية و البلاغات المفبركة تحصي الأنفاس وتتلف الأذهان والخواطر حتى تبقى العروش قائمة ويُدرَأ الشرّ المحتمل.

قد ينتفض التمرّد على النظام فيبتدع سبلا أخرى ومسالك لم تطرق فيَهبّ المسبحون بآلاء العروش لطمس المسالك والسبل قبل أن يتجسد الرفض في كلام آخر ملموس مخشلب حاد الزوايا كثير النتوءات، يُرمى بأنه وسواس من ابتداع الخناس، ورجْسٌ يتسلل إلى صدور الناس. تضليل سرعان ما يصبح، في وقاحته، شاملا، فهمّام مثلا « لا يعرف ما يحب ويعرف ما لا يحب». ما أشد الشبه بينه وبين متمرّد ألبير كامو وهو يرفع لاءاته في وجه كل شيء و «نعم» للاّشيء. يرفض الموجود ويترك الأبواب مفتوحة لاحتمالات وممكنات أخر، فلا وصاية لأحد على أحد إذا اندكت أركان النظام وتقوّض.

من اليوم الذي ابتدعت البشرية فيه آلة الكلام، وثمة من يذهب إلى أنها لم تبتدعها إفراطا في جعل النظام أبديا راسخا،

وهي مأكولة بها آكلة في سيرها نحو المسالخ تجترّ أوجاعها مرددة مقالة من قال : «تعب كلها الحياة»[4] ومتشبثة، في الآن نفسه، بالبقاء إلى الرمق الأخير، متشهية دمارا شاملا شريطة أن تكون هي وحدها الناجية منه.

في هذا «النص» يهجم الكلام بأصواته وإيقاعاته ومعانيه الغاضبة المزمجرة وإيحاءاته واستدعاء بعضه لبعض من الذاكرة والمشاهدة على همّام ، وإذا به يتدخل، كالآخر المخاطَب وإن صمت، مندسًّا بين المقول والمعقول اندساس فعل الإبصار بين العين والمبصَرات، فيعسر التمييز، أحيانا، بين المتكلم والمتكلم إليه (لهمام اسم شهرة يحمله هو كوازكي)، ذلك أن الألفاظ تصبح ملموسة فيه كالمشاهدات والمسموعات والمشمومات والمدركات بالحس والوعي. ومن هنا انتشرت في « النص» عبارات التوجع والغضب والسخط والنقمة والشتيمة، وكثر إيراد الشواهد باستحضارها من الذاكرة.

لفظة الذاكرة تبدو، هنا، غير موافقة للمألوف من معانيها، فهي لا تتضمن فصلا بين الحاضر والماضي المنبعث في حاضر متجدد هو كالمتخيل المخيّم على تخوم المستقبل. إنها اشتغال مستمر للفهم وإدراكِ الذات والعالم. وكان ذلك كله خارج

---

4 - المعري

ما يسيّج به « النظام» نفسه ويضربه عليها من شاهق الجدران، إلا أنه خارج موفٍ على الانكفاء كالمجزوم من الأفعال فـ» لا أفق في الأفق». وإذا المحصّل أن كلاّ محاصر بـ «استبداد اللغة» يحمل في ذاته منه ما يأكله مثلما يجرجر فيها ما حلّ به من بصمات وجروح وكدمات، وقد يرفع رأسه مستجليا الآفاق التماسا لنسمة من حرية أو بصيص من أمل.

أرى أن توفيق بن بريك قد وضع يده، في هذا «النص»، على مخبوء جدير بالتأمل.

حسين الواد. 14 - 10 - 2014

قصدت طاطاوين لأمر لا يهمّ.

طاطاوين، منبسط الأرانب، تَنظر إليها من الشمال، نِسر يطير، من الخلف ذيل زاحفة عند الانفصال. أخذتُ عنها أسرار الغدر وقلّة المعروف. «في افريقيّة وافق أو نافق أو غادر البلاد»[1]. ضِعْتُ في كرش الغابة وفجّ الرّيح، أتسوّل شربة ماء.

طاطاوين، رقعة شطرنج، مُربّعات سود تتقاطع ومربعات بيض، لا أزقّة خلفيّة ولا ضواحي برازيليّة. مرفق للنوم والسبات مسارحها وحاناتها وكباريهاتها ومقاهيها ومطاعمها. محطّة أرتالِ الشمال، لا يؤمّها غير العوانس والأرانب، مبيت مفتوح على النّدم. فيلم أسود خال من الخطر وصفّارات فرق التدخّل وملاحقة العصابات وسرقة البنوك ونهب محلّات بيع المسوغ وصوت الرشّاش ورائحة الفانتازيا. مدينة سلّمت مفاتيحها للبوليس فقط، لا لصّ في الدّار، مسالمة، ناصعة من الفجع، قرويّة، ريفيّة، معصومة من المنكر والمأساة والدراما. الريف يبدأ من حديقة «البِلْفِيدِيرْ».

أَتَعلَمُ لماذا فازت لندن بالألعاب الأولمبيّة في حين لم تظفر بها باريس؟ ببساطة، باريس مدينة بوليسيّة آمنة، فاقدة

1 العلاّمة عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (1332 – 1406). أهمّ أعماله كتاب المقدمة، مقدمة لمؤلّف ضخم، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

لبراءة الاختراع وتموّج الجمهور. لندن عاصمة الخطر، دمها أَنْڤْلِيزِي سْخُونْ. باريس مدينة الساحات المذهّبة، شوارعها مؤثثة كصالونات المنازل. خارج شقّته، الباريسي، في ساحة «لابَاسْتِي» و«سَانْ مِيشَالْ» و«الرِيبُوبْلِيكْ»، يتقاسم مع جاره الخمر واللّحم والمقبّلات وقبلات الفاتنات. زجّوا بباريس في قائمة المدن الخاملة، ما بالك بـ«طاطاوين» الشّرغوف، الضفدع الصغير، قرية مقاهي الشّيشة والتومباك والحانات المرحاض، تدخلها، تخرج معطّرا بالبول؟

طاطاوين لا تصبّ شوارعها في ساحة شعبيّة كساحة التحرير في القاهرة، أمّ الدّنيا. لها شارع يؤمّه الهُمَّالُ، شارع الحبيب بورقيبة. طاطاوين تتلخّص في هذا الشارع، أظنّه يمتدّ على نصف كيلومتر طولا ومائة متر عرضا، يبدأ بتمثال ابن خلدون وينتهي بساعة سبعة نوفمبر، يسارا كنيسة القديس «فانْسَانْ دِي بُولْ» ويمينا سفارة فرنسا. في القلب وزارة الداخلية، مزروعة كثالولة فوق أنف مشعرّ. الشارع الرئيس يحدّه شارع فرنسا وينتهي بشارع محمد الخامس وتتخلّله أنهج وزقاق. هنا طاطاوين، كلّ طاطاوين بعبادها، وإلى هنا، من حيث محطّة برشلونة ومحطّة الجمهوريّة وبطحاء محمد علي وباب جديد وباب سعدون والأبواب السبعة، يأتي الأذى.

من معه شارع الحبيب بورقيبة له منقار الرخّ.

لست أدري لماذا بعد سقوط عرش طاطاوين أصبح الدخول إلى شارع الشطرنج كعُبور حدود دولة تلّ الربيع. مداخله مرصّعة بحواجز أمنية ونقاط تفتيش، والحَرْقَة لمن استطاع لها سبيلا ودَخَلَ الحرم، تصطدم بالطرد اللئيم. شارع بلا نساء، معتقل الذّكر، «قُولاقْ». طرابلس الصغيرة ترحّب بكم. شاعر أشعر منّي، ورجل أذكى منّي بكثير، جَغْرَفَ: «حريتي فوضاي... ليس من حق العصافير الغناء على سرير النائمين / والإيديولوجيا مهنة البوليس في الدول القوية / من نظام الرقّ في روما / إلى منع الكحول وآفة الأحزاب في ليبيا الحديثة»[1].

الحضر زمن «آلْكَابُونْ» في «شيكاغو». بحثت عن ماخور فلم أجد غير ضريح سيدي عبد اللّه قِشْ. تهاوت الدّعارة وحلّت الهداية الحميدة. ممنوع على الصّغار. حصّة التاسعة مساء في السينما أُلغيت. من بيضة الضّيق خرج ذو الرؤوس الألف.

قامت القيامة وطاح عرش طاطا من أعلى ناطحة سماء الشارع الخامس وانقشع زُوره. شُرّدت رؤوسه وتبعثرت صفوفه وسُجن كباره وتنحّى رأسه نهائيا. لم نطوِ الصفحة

1 من قصيدة مديح الظلّ العالي لـ محمود درويش (1941 – 2008). أهمّ دواوينه، عاشق من فلسطين ويوميات جرح فلسطيني ولا تعتذر عما فعلت وحصار لمدائح البحر وجدارية.

بل مزّقناها أشلاء أشلاء. خرج عرش طاطا يجرّ الخيبة. دفنّاه في قبر جماعيّ. رابطنا في الحصن ليال بيض في انتظار الغزو، غزو التتار المرتقب، كما في صحراء التتار*، التي تعود إلى طاطاوين، بشيء من التشويه.

أعلى الصور، رأيناهم، يُجَمِّعُونَ خيماتهم وعتادهم، ينسحبون ويتراجعون من حيث جاؤوا، تاركين وراءهم روث بغالهم وغبار تهديدهم الذّي ظننّاه قد ولّى وانقضى. غفل المرابط وغفا. قلنا دحرنا الخطر وربحنا الحرب دون أن نطلق بارودة. أعلنّا سقوط عرش طاطاوين وانصرفنا نُجابه عدوّ السّاعة، شبح الأذى. كرّ ودماء، حدّ الاعياء. خلناها آخر الحروب، حرب الحروب، حرب للقضاء على الحرب، للسّلام.

حينها عادت جحافل التتار وفتحت جبهة مديدة. ومن حيث لا ندري، دخلوا الدّار وعمّروها من جديد. انسحابهم من سدّة العرش وتركه لقمة سائغة، كان تمويها وخطّة محبوكة. دفعوا بـ التّيّاسْ، مُشاة في الأيّام العصيبة، زمن العصيان. لمّا تبدّد السّخط، خرجوا من خنادقهم في عنفوانهم. لا ينفع الندم. الاستعمار. عادوا فعادت فيالق الوشاة والخوف والمشي الحِيطْ الحِيطْ.

---

* صحراء التتار، رواية للكاتب الإيطالي دينو بوتزاتي.

عام أو أقلّ، خرج الميّت من قدّاسه مشوّها كـ«لِعَازَرْ». مازال ينبض حياة، يطالب ببيته ورزقه ودوره، مُظهرا حُجج ملكيّته لطاطاوين منذ قرن. ذكّروني ببني إسرائيل الذين نزلت عليهم اللّعنة وتاهوا أربعين عاما في الصحراء ثمّ جاؤوا إلى «هورشليم»، يطالبون بحقّهم الأزلي في العودة. سأل الفارس «بَالْيَانْ بِنْ بَارْزَانْ»، «صلاح الدَين الأيوبي».

– ماذا تعني لك هورشليم؟

– لا شيء.

انصرف صلاح الدين ثمّ التفت إلى فارس الفرنجة المنهزم وكمش مَقْبَضُه.

– ... وكلّ شيء.

ها هم يتجمّعون ويتوعّدون بطوفان أبيض. كأن شيئا لم يكن. قالوا: «نحن من شيّدنا السدود وفتحنا طرقا سيّارة في الجبال وبنينا الجامعات والمستشفيات والمعامل وحرثنا الأرض وسوّينا عرش طاطاوين. نحن طاطاوين».

يعتقدون أنّ الوطاء ورثة لهم والآخرة لنا. ما أروع من قال في ما قال: «لم يَعُدْ في يدِنَا أندلسٌ واحدةٌ نملكُها / سَرَقُوا الأبواب والحيطانَ والزوجاتِ، والأولادَ، والزيتونَ، والزيتَ وأحجار

الشوارعْ / بعدَ خمسينَ سَنَةْ نجلس الآنَ، على الأرضِ الخَرَابْ
ما لنا مأوى كآلافِ الكلاب / بعدَ خمسينَ سنة، ما وجدْنا وطناً
نسكُنُه إلاّ السرابْ / ليس صُلحاً، ذلكَ الصلحُ الذي أُدخِلَ
كالخنجر فينا، إنه فِعلُ اغتصاب»[1].

أسقطنا عرش طاطا وقطعنا كل السبل على عودته. الأوغاد يريدون نزع منقار الدُّوَار منّا.

نكنّ للعرش كرها وغيضا لا حدّ لهما. إنّه المتورّك على البلاد والعباد طيلة قرن بالحيف والمداهنة والفساد والرشوة والرعب والسلب والنهب. أسّسوا للمحسوبيّة والجهويّة والتمييز. ينوح الحيوان في مزرعة الحيوان : «كل الحيوانات سواسية ولكنّ بعضهم أكثر مساواة من البعض الآخر»[2].

طاطاوين تحيى وتموت تحت إمرة العرش. لا مفرّ من قبضة التاج. تريد شغلا في المناولة عليك بصكّ الولاء. تريد دفتر معوز، شيخ التراب ينقّب عن أصلك وفصلك. تريد منحة لابنك البَيّاتْ في معهد «طاجروين»، عليك أن تَعِدَ طاطا بصوتك وصوت أفراد عائلتك، حتّى الميّتين منهم. لا شيء خارج عن السيطرة، البودقة.

1 من قصيدة المهرولون لـ نزار قبّاني (1923 – 1998). له 35 ديوانا، أبرزها طفولة نهد والرسم بالكلمات.

2 من رواية مزرعة الحيوان، للروائي البريطاني جورج أورويل.

عرش طاطا يسيطر على الدولاب. الدولاب هو العرش والعرش هو الدولاب. يشرّعون ويقاضون وينفّذون. بيدهم السلاح والمال والدّين والجهاز وخاصّة مكننة التعيينات والتسميات، ماكينة شبه إلاهيّة. من الوزير إلى السفير مرورا بالأئمّة والشُوّاشْ.

أكثر من ألف عرش صغير تَنوبُه، مزروعة كأبراج مراقبة في سور الصين العظيم، مقرّات دخلها أكثر من مليون مُطيع مُبايع، شعارهم تَدْبِيْر الرّاسْ. هذه الطّاعة تحيلك حتما على الوشاية والغدر ولقْوَادَهْ وهَزّانْ القُفّهْ والتَلْحِيسْ والتَمْقِيسْ. خريطة طاطاوين مبقّعة بأصنامه، استيطان منظّم. ليس هنالك دوّار أو قرية أو حيّ أو مدينة أو شارع لم يتمركزوا فيه. عمليّة تسمُّ محبوكة حسب تكتيك الفراغ يجلب البلاء. اعلوا عرش طاطا.

قَباطنَة عرش طاطا ودُهاته، من هم في الدّرك القدّامي، خبثاء القوم، صحابة طاطا، يعرفون أنّ الحرب أو ما يرادفها من تمويه وحركة وسلب للضمير، تُربح على الأرض بافتكاك الهضاب والسّهول. العلم المرفوع في مدخل «مجاز الباب» أو في أعالي «تالة» موقع مفتكّ، في حوزتهم، مُستعمَر. من تلك المواقع المحصنّة، تبعث الحمالات والتعزيزات والانزالات لبسط نفوذ

العرش وفرض سلامه وجعل النّاس يعتنقون مذهبه ويقتادون ببهتانه.

صُبغت جلدتنا بدهان عرش طاطا، نتنفّس عرشا، نلبس عرشا، نأكل عرشا.

عرش طاطا ليس لديه منحى أو طموح، هو عرش نمط عيش، يستمدّ انتشاره من وَهْم النّاس، ما يحبّون، ما يكرهون، ما يأكلون، ما يلبسون، ما يعتقدون.

من خرج عن السّرب، سرب عرش طاطا، ليس منّا، معتوه، مهبول الفِيلَاجْ. الابن العاق، إبرة في كومة تبن. نكرة لا يعدّ في عمليّة الإحصاء، «قبرصيّ» أو «طنزانيّ» المسقط.

عشنا زمن عرش طاطا مختبئين، خائفين خوف الأرنب من الذئب. سجناء وراء قضبان من البشر، مبليّين بالطاعون. الذئب الأبيض في حضرة طاطا. الجيران يستعوذون عند رؤيتنا. في الطريق سوّاق يبصقون في وجوهنا، أصحاب المقاهي يمنعون عنّا الدخول، ممنوع على الكلاب، كلب بن كلب. منعوا عنّا الأكسجين، منعوا عنّا البكاء والضحك والنُباح، منعوا عنّا النظر في المرآة. حجروا علينا، عَزَلُونَا، ضربوا من حولنا حائط العنصرية، اتّهمونا بالكَلَبِ. «ولا عاش في طاطاوين من خانها». حاكمونا، سجنونا، شردّونا، قطعوا

عنّا الرّزق، لاحقونا، طاردونا، طرّدونا، نهشوا وعُدْنَا.

قامت القيامة وانهزم عرش طاطا. قُلنا طاطاوين روما، مدينة مفتوحة. احتفلنا بنيسان. كُن حليما وصبّ همّك على مفترق الطريق، غريم الآن، عدوّ البيان. قلب كبير يتّسع للمغفرة.

نسينا ما دَنَّسْته طاطا. نسينا الوجع الضّار. ها هم يحيون الجرح. أيّها الجريح عرّج عن أدبي: «هل يصير دمي بين عينيك ماء؟ / أتنسى ردائي الملطَّخَ بالدماء»[1].

الجرح يتّسع، يتّسع، يتّسع اتّساع فُوَّهَةِ المحرقة. غليان ولهيب.

لتشتعِل البلاد.

«وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا» (الطارق 11، 12، 13، 14، 15، 16).

سيّارات البوليس المدرّعة تعبر، بسرعة الجنّ، ليل طاطاوين. بين السّاعة والسّاعة، تدقّ صفّارات الإنذار. النّاس يهرولون في كل الاتجاهات. فيالق الموت تسيطر على الأبواب السبعة. مرتزقة صغار، إناث وذكور، لا تتجاوز أعمارهم اثني عشرة

---

1 من قصيدة لا تصالح، لـ أمل دنقل (1940 – 1983). أهمّ أعماله، مقتل القمر وأوراق الغرفة 8.

عاماً، يلعبون بالنار، كلاشنكوف وآر بي جي ومسدسات أوتوماتيكية وبنادق قتل. آباؤهم وأمّهاتهم ماتوا ضحايا النقمة والفتنة. أشباحهم ترغي، في الليالي البيض، مع الرّيح العصيب.

قبائل ضواحي النزوح، حيّ التضامن والكبارية والمحمديّة والكرم الغربي تتناحر، فرّ من فرّ وعَوّقْ إليّ عَوّقْ. سقط باردو والقصبة وقصر «كرطاج» والبنك المركزي في أيادي أولاد عمران. تراجع وهجوم على حين غرّة للسيطرة على مطار كرطاج الدولي وثكنة الحرس الوطني بالعوينة والتلفزة الوطنية شمال مرتفع «الهيلتون». الهلال الأحمر يُصدر بيانات السّاعة. قتلى وجرحى بالقنطار.

السلطة في عطلة.

الحياة أصبحت لا تطاق في طاطاوين، عليّ الفرار بجلدي. عصر عليّ السؤال، ناداني مسقط رأسي وموطن شغلي، سيدي حمد الصالح. أرجع إليه لأكمّد الاستفهام وأوقف السؤال. أسترجع ثباتي من ثباته ثمّ أعود طالبا الاشتباك في الورطة.

ما إن خرجت من ضاحية منوبة، بوّابة طاطاوين الغرب، طاطاوين الدّاخل، أرض الزراعات الكبرى على الحدود

الجزائرية، ودخلت «مجاز الباب» ـ مدينة أتت وحطّت أبوابها على ضفاف وادي مجردة، خزّان ماء البلاد ـ سكن هَوْلي وتبذّر الفزع من حولي. رِيحِةْ البْلاَدْ.

وصلت تستور، إشبيلية الصغيرة، أردت أن أستريح في صحنها، تحت صومعة الجامع الكبير الذي بناه من طال بكاؤهم، «يا زمان الوصل بالأندلس»[1]. لم أجد رغيفا وجبنة وحليبا يسدّ السؤال، ولا موشّحات المالوف لتردّ على جناحي البكّاء: «يا لقومي ضيعوني / ورأوا قتلي مباحا»*.

كسارق، تركت الديار باتجاه «تبرسق» المحاذية لآثار «دقّة»، مدينة غابات الزيتون المُعمّر والكبش الفرناني وخمر «تيبار» ومشاوي الخَنْتوشْ، الخِنّوْص. لا شيء من هذا ليشهد على مكارم طاولتها. لم يبقَ من يسائلني.

وجهتي عاج أجدادي.

مدينة الكاف، الشمال الغربي، غرب المتوسط، مغرب البربريّة، دخلتها بدرّاجتي الناريّة الضخمة، اليابانية، «كَوَزَكِي»، وَحْشٌ أسود من حديد ونار، على عجلتين مطاطتين، اسمي على جسمه.

1 موشّح أندلسي للشاعر والكاتب والمؤرخ والفيلسوف والطبيب والسياسي لسان الدين بن الخطيب (1313 – 1374).

* موشّح صوفي.

اسم الشهرة كَوَزَكِي، في بطاقة التعريف همّام. (عجيب هذا الاسم، ما الذي دفع أبويّا ليسمّوني همّام؟ هل هي هفوة شكل ونحو وصرف؟ ربّما أخطآ في تسميتي، همّام بدل هُمام، أو أطلقا عليّ هذا الاسم الغريب، بعد أن علقت بذهنيهما صورة ذاك البطل الطنطاويّ في مسلسل همّام الطبّال، طبّال في النّهار وقاطع طريق في اللّيل. ربّما همّام من همّ يهمّ حمامة. لنقف عند همّام ونمرّ). «أنا في النهار رجل عادي / يؤدي واجباته العادية دون أن يشتكي / كأي خروف في القطيع لكنني في الليل / نسر يعتلي الهضبة / وفريستي ترتاح تحت مخالبي»[1]. على أيّة حال، أنا معلّم بمدرسة النور الابتدائية بدُوَّارْ سيدي حمد الصالح، قرية فلاحيّة من معتمديّة «القلعة الجرداء» (الخصبة حسب بورقيبة)، على بعد مائتي كيلومترا من طاطاوين.

سيدي حمد الصالح يحدّها يمينا جبل سيدي البوهالي المطلّ على سهول «وِنْزَة» الجزائريّة، أين يرتع الكَنَاتْرِيَّةْ وحمّالة السلاح في وجه عرش الحيلةِ والحيف. شمالا تقف سلسلة الأطلس، فكّ ذئب أبخر، تذكّرني بأعمدة «كرطاج» المسوّسة. يتوسّطه مرتفع جبل «الشعانبي»، ناب غول الحذاء الطائر، تهديد صارخ في وجه السّماء.

---

1 من قصيدة تحوّلات الرجل العادي للشاعر العراقي سركون بولص (1944 – 2007). أهمّ أعماله، حامل الفانوس في ليل الذئاب وغرفة مهجورة.

متزوّج من ابنة عمّي عمّار، مهريّةْ الزُغلامي، تكبرني بسنتين، فهي في الأربعين، ربّة بيت توقّفت عن التعليم منذ الابتدائي. لِي توأم، محمد علي وعمّار، يبلغان من العمر ثمانية عشر عاما، يدرسان بمعهد طاجروين المختلط، باكالوريا السنة القادمة إنشاء الله. وُلِدَا بشهوة على جبينيهما، (هذا ما جنيته من زواجي بقريبتي). مهريّةْ هي أيضا ابنة خالتي خلويّه (كدت أتزوّج أختي). سترني اللّه من أبناء بذيول خنازير*. أملكُ درّاجة ناريّة وأسكن منزلا فيه غرفتان للنوم ومطبخ صغير وبيت للراحة والاستحمام (بديع هذا الشعب الذّي أطلق على المرحاض اسم بيت الرّاحة).

متصرّف حاذق في دخلي، ستّمائة دينار. لا يصدّق أحد كيف أُلبّي حاجات عائلتي. اِحْذِفْ مائة وخمسين دينارا كراء المنزل وتقريبا معدّل مائة دينار لاستخلاص فواتير الماء والكهرباء شهريّا. ماذا تبقّى؟ ثلاثمائة وخمسون دينارا للأكل واللّباس والدواء والأدوات المدرسية والنقل والأعياد والأعراس والضيوف.

كلّ يوم أنهض مثقلا بهموم الفَلس. لا مفرّ من ضغط الأيّام. تِيكْ تَاكْ تِيكْ تَاكْ عَ الصْبَاحْ يَا رَبّاحْ، يَا سَلاكْ الوَاحْلِينْ، نَحْنَا عْلِيكْ معَمْلِينْ، لِتْرَانِ مِنَ الحَلِيبِ وخُبْزَتَان. تِيكْ

* أبناء بذيول خنازير، عن غابرييل غارثيا ماركيث، من رواية مائة عام من العزلة.

تَاكْ تِيكْ تَاكْ، قِدْرٌ مِنَ المَرْقَهْ بِدَجَاجِ المَاكِينَهْ. تِيكْ تَاكْ تِيكْ تَاكْ والعشَاءْ هَاوْ رَاسِي كُولُوهْ. منين لَيَّا؟ لَا تبَارِكْ لِيكُمْ. تِيكْ تَاكْ تِيكْ تَاكْ السَمَاءْ تَضْربْ بِالْحَجَرْ، السّقَفْ يُقْطِرْ، بَاشْ نسِدّو؟ رَبّيَهْ لَهَا. تِيكْ تَاكْ تِيكْ الطْفِلْ يكَوِّرْ تِكْسَرْ، العْمَاءْ والصْمَاءْ.

حتّى أُعَيّش عائلتي وأُعيلَها، أنا همّام الرجل المقدام، كَوَزَكِي، نِقْلِبْ ونْشَقْلِبْ. كْرِيدِي من هنا وسلفة من هناك. الحبيب هنا والحبيبة هناك. هذه الأيّام، ككلّ المخدوعين، أحذق الرياضة الأولى قبل كرة القدم ونطيح الأكباش، جمباز القَلْبَهْ. لولا درايتي وتألّقي لما استطعت العيش (ناديا كومانتشي* ليست ببعيد). لا مفرّ من سلب الأولياء بفرض الدروس الخصوصيّة. أستغلّ حيرتهم وطموحهم في أن يصبح أبناؤهم أطبّاء.

الرجل مجبر على الحيف وإلاّ يموت.

عليّ أن أتصرّف يوميا في خمسين دينارا، لا أقلّ، حتّى أسهر على رعيّتي. عمليّة حسابيّة في المتناول، عشرة دنانير لفطور الصباح، عشرون دينارا ثمن المَرْقَهْ وعشر دنانير للعشاء والباقي للمصروف الزَّايِدْ، سجائر الكواكب وقهوة عند بن

* ناديا كومانتشي، بطلة أولمبية في رياضة الجمباز من رومانيا. شاركت في الألعاب الأولمبية في 1976 و1980 وفازت بتسع مداليات، خمسة منها ذهبية.

النوّي ومصروف «مهريّهْ» والتوأم، هريسة اللّوز وحلوى الحمص. تراني كذاك الهارب من قطيع الذئاب ليقع في جبّ أسفل قاعه جمهرة من الأفاعي. أتعلّق بجذع حتما سينكسر. «آبَى الموت قبل أن أعرف الحبّ الكبير»[1].

في كلّ يوم يهبني الربّ، تراني أنزوي، أوحّد أنفاسي تحت ظلّ الكرمة الصلعاء في باحة الدّار وأفرّ شاردا إلى السؤال

- هل أنا عادي أم فريد؟ هل أنا قملة بين القمل؟ أم زعيم بين الزعماء؟ هل أنا «أميلكار بركه»، رجل كألف؟

تحت وطأة الحمّى البيضاء، أفرّ إلى ربوع المباح، آكل لحم البشر وأشرب من دمك. دثّروني دثّروني أنا كَوَزَكِي الخيّام. في لمح البصر ينبت الشّعر على لساني، تتجمّر عيناي وتتمدّد ضلوعي. أهذي ضاربا صدري كغوريلا أدغال «رواندا»، سائق القاطرة المهبولة، كينغ كونغ*. «ولكني إذا ما جعت / آكل لحم مغتصبي / حذار حذار من جوعي / ومن غضبي»[2].

قِرْرْرْرْ، هِزبر. أنتصب مفترسا، لا غالب له، قويّا لا ضعيفا، غنيّا لا فقيرا. راسكولنيكوف الجريمة والعقاب**، قاتل عجوز

---

1 من رواية أنا كارنينا لـ ليو تولستوي (1828 – 1910). أهمّ مؤلفاته، الحرب والسلم.
* كينغ كونغ، فيلم للمخرجين الأمريكيين ماريان كالدويل كوبر وإرنست بومونت سكودسك.
2 من قصيدة بطاقة هويّة لـ محمود درويش.
** الجريمة والعقاب لـ فيودور دوستويفسكي.

الرباء، استحوذ على مخلاة مدّخراتها. سألـه القاضـي :

– ما مهنتك يا رجل؟

– أَسْأَل.

أشتهي رأس غنيّ مصليّ. أرى النجوم في كبد الّضحى. الهذاء. أقتل ساعة تاجر البندقية وساعة أخرى بخيل سمرقند، أثرياء طاطاوين، أسطو على ممتلكاتهم وثرواتهم. لبرهة أعيش في بحبوحة وأرقد على مليون دولار في حسابي البنكي وأسبح في الحليب وأشتري لمهريّهْ فساتين وأحذية من «باريس» وأضع على ذمّة توأمي غابة من الأيادي، سائق ومرافق وحرّاس وحلاّق خاصّ وزهرات تلقّنهما حلاوة الحلوى وما لا حياء في الدّين. في الأثناء أسكن قصر الحمراء وأتزوّج سعاد حسني وأربط علاقة صداقة مع رشدي أباظة وعادل أدهم وآكل المشوي ليلا نهارا وأتسلّى بأولاد أحمد يوم الأحد. لِيَ الجاه.

لماذا المال؟ ما قيمة المال لو لم تُصَرِّفْهُ في سوق عملة الإختلاس إلى نفوذ؟ ها أنا في مرحاض من بالي، أشتري وأبيع الذمم والهمم. نوّاب فاسدون، والي الولاّة، مدير البنك المركزي، وزير النهوض بـ«كسرى» و«بوزيد». اشتريهم بِـ وْسَخْ الدّنْيَا.

الجاه يلزمه بُوغَازْ فْلُوسْ. دخلت الانتخابات وفُزت. قُوّةْ فْلُوسْ. الرَّاجِلْ مِيزَانُو فْلُوسْ. عَنْدِكْ، تُكْثِرْ اللّحَّاسَهْ

والوَزّاكَهْ، يَجْهْرُولِك الطْرِيقْ: «وَسّعْ وَسّعْ هَمّامْ وصِلْ».
مَا نَاقِصْ كَانْ مُوتُورِيزِي وصفُوفْ الصّنْرَفَاڤَهْ.

وأنا هارب من «مهريّهْ» ونكدها وأفواه التوأم النهمة وصنم جبل الرصاص، أتفسّح في شوارع باريس وأقرأ نيويورك تايمز بالمقلوب، على حافة مسبح بخيل «سمرقند»، تسقط عليّا شمس «سيدي حمد الصالح»، أتنفّس ما طاب من غبار الطْبَايِبْ التي لا تُنبت سوى البكّ والسّدْرَايَهْ ولا تسكنها غير الكلاب السّائبة. أعود سالما إلى قواعدي، العِجّهْ بِ الزِّيتْ الشَّايِطْ وأنغام «قاسم كافي»، «هَالكَمُّونْ منَينْ يَا نَانَا».

أكل وحمد ثمّ أحسّ بكائن غريب يدبّ داخل أحشائه، غرابة اسمه همّام (مضحك هذا الاسم). أسرع إلى المرحاض واستراح

- هل أنا فريد أم عادي؟ هل أنا فقير أم غنيّ؟ هل أنا تاجر البندقية وبخيل «سمرقند»، قارون البلاد أم ابن الأرملة المرضعة: «لقيتها ليتني ما كنت القاها / تمشي وقد أثقل الأملاق ممشاها / أثوابها رثّةٌ والرجل حافية / والدمع تذرفه في الخدّ عيناها»[1]. بَاصْطَا.

قال تعالى: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (الكهف 46).

---

1 من قصيدة لقيتها ليتني ما كنت ألقاها لـ معروف الرصافي (1875 - 1945).

المال يا حسرة. كل المشاكل في كفّة ومشاكل البنين في كفّة. الدّفاع الوطني يعاني.

- جَايْيِينْ روَاحْهُمْ التْوَامَهْ فِي القْرَايَهْ؟ مِتْفَرْهْدِينْ؟ مِرْتَاحِينْ؟ فِي صِحَّهْ جَيْدَهْ؟ آشْ عَامْلِينْ مَعْ صحَابْهُمْ؟ عَنْدْهُمْ صحَابْ وصَحْبَاتْ؟ كِبْرُوا آآآهْ؟ كُثْر المَصْرُوفْ؟ آشْ عَامْلِينْ معَاكْ؟ مَنجّمْهُمْ؟ معَرْفِينْهَالِكْ؟ تِفْهِمْ مَخاخْهُمْ؟ كِيفَاشْ يفَكْرُوا؟ آشْ يحِبُّوا يوَلُّوا؟ عَاطِيهُمْ مِنْ وَقْتِكْ؟ تْحكِي معَاهُمْ؟ تَسْمَعْهُمْ؟ عَنْدِكْ مَا تِقْسِمْ معَاهُمْ، الغْنَاء إِلِيّ يَسْمْعُوهْ والسِّينماَ إِلِيّ يشُوفُوهْ؟

أكلتني السّبّورة والمنضدة وانطفأ سؤالي تحت قبب المدارس. في الأربعين من عمري، تقريبا، أعيش تحت نفوذ تَوأميّْ. الابن الملك والأب العكّاز، عكّاز الأعمى. إذا كانا في سلام وسكينة، تعلو الابتسامة محيّاهما، تراني راضيا، ساكنا، مرتاح البال. السعادة نادرة كأفول النجوم. لا أدري ما تخبئه لي الأيام، كل يوم وطعمه، كل يوم ومرارته. أعيش المساومة تلو المساومة. تَوأميّْ من طينة «كاسپر هاوسر»*، تسأله عن عشائه، يُجيبك عن ضفدعة ورديّة اللّون من اختراع خياله الملتوي. فذلكة الطفل الشقيّ.

* كاسپر هاوسر، فيلم للسينمائي فرنر هرتزوغ.

لا مفرّ من طأطأة الرّأس واعوجاج الظهر. هل من معين؟ أطلنطا في كلّ الحالات، هذه الأيّام، لا تستجيب. لاِزمْ عَامِلْ الشرّْ فِي حْيَاتِي.

أتذكّر علاقتي بأبي. كنت طفلا مشاغبا، له صولات وجولات في بطحاء الحيّ، أعود إلى الدّار تارة ممّزق الثياب وتارة أخرى أزرق العين. كان أبي لا يعرف كيف يفكّني من أيادي البوليس بعد شجار في مدارج ملعب كرة القدم. كنت تلميذا بملاحظة «سلوك غير مرضي»، من طرد إلى طرد آخر. أبي بريك يرشي ويشتري ذمم النّاظر والمناظر. كلّ قوارير كحول «اسكتلندا» لم تكف لإسكات طمع الأساتذة. اليوم، أدفع ثمن ما اقترفته. حكايتي مع التوأم إعادة لفيلم الآباء الطّيبين والأبناء الأشقياء.

كلّ المشاكل في كفّة؛ مشاكل البلاد والعالم والكون وأمّهمْ مهريّهْ، ومشكلة التوأم في كفّة. ليست لديّ مشكلة غير مشاكل التوأم. مشاكلهم مشاكل، ينهضان تحت السياط، في الوقت بدل الضائع، تلبسهما، تغسل لهما، تطعمهما، تقودهما بالتوسّل إلى المدرسة. تعود لهما عند منتصف النهار لترجعهما إلى البيت. ويتكرّر الصليب.

- ما علاقتك بالتوأم؟

- عَلاَقَهْ زِفْتْ، مَا ثَمّاشْ عَلاَقَهْ وكَانْ ثَمّهْ لَوِجُولي

عِليهَا وِينْ مْدَرْقَهْ. عَلاقَهْ مْرَهْزَهْ، عَلاقَةْ إِسْتِنْزَافْ، كِ العَلْقَايَهْ. تجِيبْهُمْ تَرَصِّي خَمَّاسْ عَنْدْ مَذْهِبْ بُوهُمْ. مْغَايِثْ. مَا شُفْتُوشْ صَنْطُوعْتِي مشَلْطَهْ؟

أنتَ المعينة المنزلية والزبّال والسائق الخاصّ والطبّاخ والممرّض وحيوانهم الأليف وملهاتهم المحبّذة قبل «البْلايْستَيْشِنْ». في أحسن الأحوال ألعبُ دور المروّض في سرك القردة.

. لازِمْ بَرْشَهْ صَبْرْ بَاشْ تفُكْ الِاشْتِبَاكْ، كِيسنجر ومَا يحِلْهَاشْ. لازْمِكْ تسَايِسْ، تحَاوِلْ تعَدِّلْ، مَا تُوقِفْشْ مَع هَضَا ضِدّ لُوخِرْ، مَا تخَلِّيشْ الكْبِيرْ ايغَطْرِسْ عَ الصّغِيرْ والذّكَرْ يِرْكِبْ عَ الأنْثى، يضَيّقْهَالْهَا، يُقْتِلْهَا وهِيَ حَيَّهْ. النَفَسْ لَا. كَانْ لبِسْتْ سِرْوَالْ خْلِتْ، كَانْ سَيِّبتْ شعَرْهَا شِنْعِتْ، كَانْ تفَرْجِتْ فِي فِيلْم فِيهْ بُوسَهْ إِنْحُطْ : «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ» (التكوير 8، 9). الحمد للّه، أولادي ذْكُورَهْ.

أين الأب في كلّ هذه الأدوار التّي يلعبها همّام الطبّال؟

- أظنّ أنّي أُجِيدُ كلّ الأدوار ما عدى دور الأب.

ما دور المربّي؟ طبعا يُربّي. ما أعسر التربية. هناك سرّ في تلقين الذريّة، كيف يسيرون، كيف يواجهون المصاعب، كيف يتعاملون مع الدنيا؟

أتسوّل شربة ماء، سائلا بين حوافر البعير.

- عْصَابِي تهَرّاتْ، غَلْبُوني، مَغْلُوبْ، نخَمّمْ نخَلّي المْلَمّةْ وإلّي ثَمّةْ ونْهِجْ. خلاَتْ وإلاّ جْلاَتْ، مُولَى الدّارْ مُشْ لَهْنَا، قَضِيّةْ الزواج من ثدي أرضعك الحليب وحَلُّوهَا. كُلْ الْحرُوبَاتْ وفَاتْ إلّا أَنَا وأَوْلاَدِي. آشْ مَجبْدِكْ فِي مَرْتِي يَا عَمْ صَالَحْ الْخميسِي*؟

هل كَوزَكِي أب؟ يا زنوبي. همّام بلا هِمّة.

– أبنائي ينادونني باسمي. هَمّامْ إِيجا، هَمّامْ إِمْشِي، هَمّامْ هَمّامْ، هَمّامْ هِزْ، هَمّامْ وِينِك، هَمّامْ اُسْكِتْ. كلّ الآباء ينادونهم بَابَا، إِبّيْ، پَاپَا، إلاّ أنا.

ما المبتغى؟ أن يكون ابنك وضّاحا، عبقريا، طيّارا أو طبيبا أو مهندسا أو محاميا، وْلِيدْهَا، يَلْعِبْ بِيهُمْ لَعْبَانْ، خبيث، ماكباث**؟

– لست مِمَّنْ ينجبون العمالقة. ودّ ودّي أن يكون ابني طيّبا، نَاسْ مْلاَحْ، يُوخِذْ بِ الخَاطِرْ، دَافِي، يحبّ لغيره ما

---

* صالح الخميسي، ولد بمدينة تستور في 13 ديسمبر 1912. تعلّم مهنة النجارة وصنع العود والنّاي. إنتمى إلى جماعة تحت السّور وغنّى للدوعاجي ومحمود بورقيبة ثمّ حوّل دكّانه إلى نادي أَحْنَا دِيمَةْ. كتب الخميسي مجموعة كبيرة من الأغاني والأزجال من أشهرها، حَبُّوني ودَلَّلْتْ وقُتْلِكْ ودْلِيلِكْ مْلَكْ وأَنَا عُمْرِي مَا سْكِرْتْ وبَابَا هْتِرْ. توفّي في 10 جويلية 1959.

** ماكبث لـ ويليام شكسبير.

يحبّ لنفسه. نِحِبْلو العَافِيَهْ، أَكَهَوْ. نِحِبْ وِلْدِي مَطْرُوحْ، «كول فرانزي»*، ضحّاكْ، كُومِيكْ، فذلاكْ. حليما لا يقتله الغيظ والغيرة والمقت والهِلْوَاسْ والتعصّب. مهمّتي تكتمل لو أعطيت ما يجود به الفقير، الثقة في النفس، مِعول يُمكِّن الطفل لمّا يبلغ أن يشقّ طريقه بعناء، لكنّ بعزّة والرأس مرفوع. لا مسكينا، مصطفّا وراء بائع الآجر. نْحِبْ وِلْدِي عَنْدُو مْصَارِنْ مِنْ حْدِيدْ، مُشْ مِـ العِنْبَهْ يِسْكِرْ وفي شْبِرْ مَاءْ يُغْرِقْ. فْقِيرْ عَنْدُو النِّيفْ، طَالِبْ رْكِيكْ. لا ينحني. لا خجل ولا عار. «الْعِزُّ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا عَذَّبْتُهُ» (حديث قدسي). نِحِبُّو نْظِيفْ، عْفِيفْ، اِيلُقْ، لا وَاحِدْ يْسَالْ ولا وَاحِدْ شْرَى. ويا حبّذا أن يكون صعلوكا، كشيبوب أخي عنترة عميل بني عبس. «لا تحيا على الأرض / كمستأجر بيت / أو زائر ريف وسط الخضرة / ولتحيا على الأرض / كما لو كان العالم بيت أبيك... امنح حبك للسحب وللإله والكتب»[1].

أسأل لابني مرتبة الآلهة خالدا، لا يعرف الموت في طاطاوين. لا قويا كهرقل أو نرجسيّا كنرسيس بل أن يمتلك تلك الخصلة النادرة الفريدة، مؤازرة الضعيف.

* كول فرانزي، بطل المسلسل الأمريكي الأيّام السعيدة للمخرج غاري مارشال.

1 من قصيدة لعلّها آخر رسالة إلى ولدي محمد لـ ناظم حكمت (1902 – 1963).

جرى حوار بين «تيزي» الانسان «وزوس» ربّ الأولمب

- أنت جدير بالمحبّة. آراك كاملا، لمن تهب كمالك؟

- لأمّي ومن صادقت وأحببت.

- هذا لا يكفي. من سيدافع عن الضعفاء؟ من سيحميهم؟ من سيقاوم من أجلهم؟!

كم من أب سقط في التربية؟ مستحيل أن تخلق من كائن حيّ، يتنفّس ويتغوّط ويفكّر ويحلم ويخاف ويضحك ويبكي ويجادل، كائنا على هواك، هواك الممزوج بالندم وعطر الإحباط وعراقيل الموروث. في أحشائي تعشّش خمسة أجيال، جديّ وأبي وابني وحفيدي. وأنا، فُصام المستتر. الأب الغاطس في الهزيمة تلو الهزيمة، سجين نزواته وعقائده البالية وأفكاره المسبّقة المنزّلة.

تعيش وابنك كغرباء. الاخوة كرامازوف*، فيدور الأب وابنه بافال القاتل، نطفة حرام. محنة أب اعتقد أنّ بْلادُو هِيَ أَوْلادُو. يجد نفسه كذلك «الغريب من كان في غربته غريب»[1]، بطّوطة يحلّ على أقوام لا يعرف سِبْرَهَا. تسألهم من هنا، يسألونك ها هنا. بالشفرة، منطق الطير**.

---

* الاخوة كرامازوف لـ فيودور دوستويفسكي.

1 من رسالة الغربة، الإشارات الإلهية، لأبي حيان التوحيدي (922 - 1023). أهمّ أعماله الإمتاع والمؤانسة.

** منطق الطير، منظومة من 4500 بيت لـ فريد الدين العطّار.

- كيف حالهم؟

- لا تسأل.

سؤال الخزي. عجز المسؤول. يا ليتني أكلت التفّاحة لوحدي.

- أين أمّهم مهريّهْ من السؤال؟

- في السْطَلْ والخِيشَهْ وحبل الغسيل. في بيت الراحة.

- ماذا يدور في رأسك؟

- فروج وفروج وفروج.

- ماذا تسأل مهريّهْ؟

- أكوام من الدّنّوسِ[1] وحزمة الذهب واللّؤلؤ.

تحبُّ، تستهويك وتستهويها، همّ بها وهمّت به، في لمح البصر، تسعة أشهر بالحساب الأرضي، ينزل قرد جديد، ليعمّر طاطاوين بتقلّبات مزاجه وتعنّته وسذاجته وسفاهته وغيرته وتمسّحه وتملّكه ودغمائيته ونكران الجميل. لعنة أم نعمة؟ اللّعمة.

كم من أبله تصوّر أنّه يستطيع أن يجعل من ابنه «موزارا صغيرا» أو «مارادونا» أو «محمد علي كلاي» أو «عمّار بن ياسر»؟ دعوني أردّد قول شيخنا القديم: «الانجاب نَحْر»[2].

---

1 كناية عاميّة عن الدينار.

2 عن الفيلسوف آرثر شوبنهاور (1788 – 1860).

- الآباء الأشرار؟ من أين لهم بهذه الشراسة؟ ليس ثمّة إلاّ ـِ أبناء أشرار، يسوّدون نهارك. تعتقد أنّ لديك سلطة أبويّة عليهم فتجد الطفل منذ خطاه الأولى، جنرالا آمرا، ناهيا، حجّاجا، يقودك إن شئت أم أبيت إلى المهلكة. لا وقت للفهم. من ضلع سوء التفاهم. مَا يبْرِدْ ويِفْرِتْ إلاَّ مَا يَفْقَعْلِكْ عِينِيكْ، أوديب. يولد الطفل بطريقا كبطارقة محاكم التفتيش.

هاربا من جحيم طاطاوين، عائدا إلى جحيم التوأم، دخلت «الكاف»، على الطريق الوطنية رقم 5، من ناحية «الكريب»، قرية فلاحية اشتهرت بتربية الماشية وسوقها الأسبوعي يوم الثلاثاء، حيث الازدحام في الطريق الطويل، شارع الفنك.

لم يبق من الكاف، حائط. من بعيد دخان أبيض يغطّي الأنحاء، مكان القصبة، في المدينة العتيقة، حيث مرقد الولي الصالح، «سيدي بومخلوف»، قرب قصر «الحبيب بورقيبة» و«بازيليكا» «القديس بيار»، دار القوس. قيلَ أن نار هذا الدخان انطفأت منذ فصل، لكنّه لا يزال عاليا، سميكا، تحمله الرياح وتشتم غازه على بعد ألف شبر.

الدخان الكثيف يُعمي الأبصار ويخنق الرئات ويَغْشَى الأجساد المسلوخة كشاة، جثث رُبطت بأسلاك حديدية على

أعمدة الكهرباء، أمعاؤها وأكبادها ساقطة كالدلو، يكسوها الدّود الأزرق.

هنا وهناك، في ما تبقّى من الأرصفة والساحات والبطاح والملاعب، بِرك من الدماء الراكدة والخراء، أكوام من العظام والجماجم المتفحّمة، المنصهرة، كوّنت نحتا غرائبيّا لا يشبه شيئا. إذا نظرت إليه من قدّام، تحسبه مخلوقا آشوريا، قامته سلحفاة، ومؤخرته فرس، ورأسه رؤوس بشر وعُجول وقطط وذئاب، نصب يحفظ ذكرى أحداث مدينة الكاف. شمالا، إذا حملقت فيه مليّا، بينما ينقشع الدخان من حوله، لبرهة، ستتكشّف على مرآة ماسيّة سوداء، بريقها خيط فُتات غبار تبر منبعث من جعبة منوار قاعة سينما الحمراء، لتتحرّك كما على الشاشة رسوم ظلال صامتة، شديدة السرعة، ألوانها مصطنعة، غامقة، أزرق ليلي وأحمر دم حمام وأخضر ورق عنب وأصفر ذهب، كثبان رمال سطعت عليها شمس الرمّان، تحكي قصّة مدهشة، مبهمة، لا تسْتَدلّها، ضفدع عملاق يركب شاحنة بلا سقف ولا مقود، تجرّها بغال ممسوخة كبغال فرسان القيامة، بغال مجنّحة، قرون تتوسّط رؤوسها، زعانف تكسوا جلدها، تمشي وتسبح وتطير وتختبئ في الدخان. الضفدع الآشوري يلاحق كتابا يطير ويطلق عليه النّار، تتساقط منه الوقائع والشخصيات والتشويق والطُرّاف.

وأنت تشقّ عمود الدخان اللّزج، تَصطِدمُ على غفلة، دون قصد، بكائنات تتحسّسها، ولا أدري إن تحسّستك، تدفعك وتنهرك: «أُنظرْ أين تضع قدميك أيّها الضائع». وبين عشرة وأخرى، يعترضك الضحك، كسحابة وزف، يلاعبك ويشاكسك ويتبعك في الزقاق بالصياح والطبول وضجيج القصدير على الطريق المزفّت: «بُوسَعْدِيّهْ جَنْ... جَنْ بُوسَعْدِيّهْ». فجأة، يمتدّ البكاء، كَيَدِ غوث تمسك بك وتخرجك من ورطة الشغب. لا أدري لماذا ألبستُ البكاء عباءة أمّي شويخه وهي تتسوّل: «يَا كِرِيمْ مْتَاعْ اللّهْ». فَلَتُّ من قبضتها وهربتُ جاريا في مكاني، لم أخطو شبرا، كالذي يجدّف في زورقه عكس التيّار. أكره الفقر. الحبّ دخل قلبي ومكث يراسلني، يا ساعي البريد. هل رأيت الحبيب؟ ثواني معدودات واستحال الحب كرها كقناع المسرح المزدوج. «أقوى من الحب الأوّل، الكره الأوّل»[1].

رفقتُ بنفسي، لأنّي لم أجد غيرها، أين حديقة الحيوانات؟ أريد أن أتنزّه وأمتّع ناظريّ بذئب جبل الأطلس، آخر سلالته. أجلس على صخرة الشطرنج المحاذية لقفص ببغاء حفظ غناء

---

1 عن أنطون تشيخوف، مسرحي وقاصّ روسي (1860 – 1904). أهمّ أعماله العمّ، فانيا والأخوات الثلاث.

جبال الكاف العالية. أشرب كأس شاي بالنعناع، في صحّة من أهملتهم. لم أفز بمن يرشدني إلى العنوان.

سألت نفسي عن عناوين أخرى، أستدلّ بها عن وجهتي وأعرف القِبلة من النجمة القطبية. من أين أسير لأصل إلى قصر الولاية؟ هل مقرّ الاتحاد قريب من «خِربة ماسينيسا؟» أعرف أنّ مستودع الحافلات من هنا، في أسفل «حي بربوش»، على بعد مائتي شبر من المنحدر. تركت منطقة الأمن العمومي ورائي. أتذكّر أنيّ إذا ما قطعت النهج الموازي تعترضني محكمة الاستئناف ومخبزة «محمد زغندة» أصيل جزيرة جربة، ومحلات بيع «الشْمِنْكَهْ» و«البَرْزْقَانْ»، الأكلات الكافية. تبخّرت الشارات وولّت دخانا أبيضا. لم يبق الكاف كافا.

ألححت على نفسي : «هل تعرفين يا صاحبتي مختار الميكانيكي بائع الخردة، مفتون «فريد الأطرش» ومجوّد أغنية «أدِ الربيع ؟» دلّيني باللّه عليه، اشتقت سماع صوته المخنوق. هل اعترضت خالتي «هنيّة» الخيّاطة وصادف أن اقتنيت منها فستانا على مقاسك وقالت فيك شعرا موزونا يتناسب وتموّج مفاتنك، عنق زرافة، عين مهرة، قامة زنجيّة؟ هلاّ تدلّني على ابراهيم الشّاف هدّاف أولامبيك الكاف، لأسترجع معه ذكريات المدارج واهتزاز الشباك؟ هل عاد لمين النهدي محبوب الجماهير

ومنتحل شخصيّة المكّي مجنون زكيّة إلى البلاد؟».

«لا تطرق الباب، لا أحد خلفه»[1].

الكاف عرفته وعرفت أهله وحكاياته المخبئة بين الزقاق وأكلت ملح ترابه وشربت خمر خمّاراته الإحدى عشر وهدهدتني نساؤه لّما أصابني الخبل وسقطت في هوّة الهبل، عندما صرت أهذي كالسفينة السكرانة* وأرى الحروف تمشي على رأسها، تأبى الاستقامة والاصطفاف. لـمّا تماثلت للشفاء، تمارضت لسنوات عداد، حتّى أنعم بدفء إبط الممرضات، بنات الكاف ذوات المضحك البرق والناب المصقول.

لم يبق من الكاف ما يذكّرني بكافي. صار بقعة هالكة، أرض رمادية كسطح سيدي حمد الصالح، يهطل من فوقها مطر أبيض دخان. أقف على نهاية المسألة. لم ألحق على مدينة البندقية، لأتفسّح على مسالك الماء ثمّ أموت. مازلت صغيرا والعمر قصير، أرفض أن أموت قبل أن أعرف الحب الكبير.

شغّلتُ كَوَزَكِي وسرتُ في الغرب دون رجعة. الدخان والمطر الأبيض أكلا الحنين.

في الطريق المؤدّية إلى طاجروين، المدينة الريفيّة، التي لا تمتّ

---

1 من رواية سأهبك غزالة، للروائي الجزائري مالك حدّاد (1927 – 1978). أهمّ أعماله، مأساة في خطر والإحساس الأخير.

* السفينة السكرانة، قصيدة لـ آرثر رامبو (1854 – 1891)، كتبها وعمره 17 عاما.

للمدن بصلة، مدينة تهوّش ناسها والضجر نخر أيّامها. ثلاثون كيلومترا تفصلني عن هذا المطبّ. سأعمل كل ما في وسعي حتّى لا أمرّ به.

كَوَزَكِي يزمجر من السرعة الفائقة وانفلاق المحرّك. صرت أبيض كالملاك الرّهيب، تخشاني المسافة وما تبقّى، صاعدا، نازلا بين الحفر والحجر. لمحت شكلا مستطيلا يتحرّك من بعيد بانتظام، ما إن اقتربت حتّى اتّضح السؤال، ديك روميٌّ نافخا صدره، يلبس عمامة حربيّة مزركشة عليها أوسمة ونشانات، ويعْتَمِرُ قبّعة ورقٍ عليها نجوم، هيلا سيلاسي الأوّل، ملك ملوك إفريقيا ونيغوسي الحبشة يقود كتيبة غير متجانسة، كلاب رعاة تتقدّم مربّعا من الماعز الموريتاني، تليه دجاجات تتبعها زمرة من البيض المسلوق ومومياء قزم وأوركسترا نحاسيّة تدقّ الطبل والمزمار. النّشيد الحربي يُدوّي: «أَلَهُومْ أَلَهُومْ... دُوبِمْ دُوبِمْ».

انقطعت أنفاسي. حَضَرَ الأجل يا طائش. «أوقفني وقال لي: أهرب. فقلت إلى أين؟ فقال: إلى الظلمة. فوقعت في الظلمة فأبصرت نفسي»[1]. الدّخان الأبيض يَلْحَقُكَ وسرك

1 موقف من أنت ومن أنا، كتاب المواقف والمخاطبات لكبير المتصوّفة محمّد بن عبد الجبّار بن حسن، الملقّب بالنّفري.

الموت يصدّك. إلى أين يا منحوس؟ الاتجاهات سواسية تردّك إلى مفترق الطّريق. من هنا، من هناك، كل الطرق تؤدّي إلى منتهى السؤال. أتدري فوق ماذا تسير؟ الحصير الذّي تتحرّك فوقه قلعة جرباء، تظنّه سعف جامد وهو يدور، غير مشدود إلى وثاق، سابحا كصخرة مزروعة في الهواء. «الرّقعة تتحرّك لا القطع»[1]. لعبة الموت على طاطاوين، حكم الاحتضار على الانتظار. أنت اللّعبة وبساط الرّيح هو كاسباروف*. مات العرش، عاش العرش. البقاء لطاطاوين الجالس. كَوَزَكِي، أَتحسب نفسك حيّا؟ من يدري إن لم تكن ميّتا في الموت. مسؤول قدّام السؤال. طاطاوين؟ طَائَيٌّ السؤال في طاطاوين، عرش الطاء المضاعف، طاء قوّة طاء، طاء، ط × ط، تحيلك على ما أعظم من المسألة. أطلنطاوين، أطلنطس؟ لا تتكهّن. أتركها للمسافة.

كبرّتُ واستعذتُ وسطعتُ كتيبة الموت بالضوء الكاشف وضغطتُ على المنبّه. لم يفسحوا المجال. قرّرتُ أن أشقّهم غير عابئ. شيء لا يعقل. ما إن لمستُ الشلّة حتّى تبددت كصورة كرتونيّة مرسومة على لحاف السينما المتجوّل. سمعت صراخ

---

1 عن أكتافيو باث، أديب مكسيكي (1914 – 1998).

* غاري كيموفيتش كاسباروف، بطل العالم في الشطرنج، سنة 1985.

أشكال وألوان تتوجّع وسباب من خلفي: «يا جحش».

لم أكترث بالحادث وواصلتُ أسوق آفتي البرونزيّة، مقوّس الظهر، مرفوع الرّأس حتّى لا أباغت بقنفذ يشق الطّريق. مَالَ جَفْنَايَ يثقلان والنّعاس يتسرّب إلى صدري كضباب لندن؟ أخشى أنني دخلت سلطنة النّوم دون تأشيرة.

إذا حللت بسلطنة النّوم، لا جدوى للسؤال. النّوم إلهٌ نزويّ، قاس وقويّ، أقوى من جاذبيّة الفسوق وصعقة الموت وجلمود عرش طاطا. إلهٌ لم نصنع له طوطما، لا يحتاج عُبادا ونساكًا، هو الحاضر المستتر باسم الغائب المفضوح.

استنجدت باليقظة واتّكلتُ على الاستفاقة واستنشقتُ الصّقيع، لكنّ الغفوة لسعتني والخدر قبض على فطنتي وعنادي. أُغمضتْ عيناي، وقضى النّوم أن لا أستفيق. وقعتُ بدرّاجتي على حافّة الطّريق. كَوَزَكِي أنهكه السّفر. أسلمتُ وأتيتُ صخرة الشطرنج. فتحتُ خيمة النّايلون وضخختُ الهواء في فراشي البلاستيك وأعطيتُ للنوم حقّه. زارتني الأحلام في منامي، أحلام بالألوان، كالأفلام. «أَوليست الأفلام حلما؟»[1]

رافقتني دليلة القاعة المظلمة، مشيرة بمصباحها إلى مقعدي في الصّف الأوّل من الشّرفة، قدّام الشّاشة الكبيرة. فُتح السّتار

---

1 إنغمار برغمان، مخرج سينمائي. أهمّ أعماله: بيضة الثعبان وفاني وألكسندر والصمت.

الخمري وزمجر أسد مترو ڤولدوين ماير* وخطّ الجنريك.
المبتدأ.

الأحلام ترتطم على مقلتي دون انقطاع. حلمت بألف فيلم وفيلم. الحلم الواحد لا يتعدّى الجزء الضئيل من الثّانية، ثانية كألف ليلة وليلة، شهرزاد لا تتمهّلي البساط، شهريار لا يُمهل. شاهدتُ حصان آغير الكونكيستادور** يغتصب ابني عمّار على مذبح الآزتك، تليه لقطة شيخ وقور ينقلب فجأة إلى وطواط مصّاص دماء. أشرطة الفزّاعة البيضاء. مدينة برازيل تعدو بناطحاتها، سيقان عدّاء أولمبي، باتجاه مصبّ الأمازون. راعي البقر يمتطي صاروخا ذرّيا ينذر بالانفلاق***، والقادمون من الفضاء السحيق في شكل الجمبري**** حطّوا على سطح الجزائر، تحديدا، مدينة سوق أهراس المحاذية لساقية سيدي يوسف بولاية الكاف. «ذِي آنْدْ»، النّهاية.

عاد الضّوء إلى الظلماء. أفقتُ. هل فعلا أفقتُ أم ما يزَال الفيلم طويلا؟ عيني مفتوحة على مشهد يفوق الخيال. أَهو السؤال؟ عصابة ملثّمة من الخنازير، على ظهرها بنادق، تتحزّم

---

* مترو غولدوين ماير، شركة إنتاج وتوزيع أفلام أمريكية.
** آغير، غضب الربّ، فيلم للسينيمائي فرنر هرتزوغ.
*** من فيلم دكتور سترينجلوف للسينيمائي ستانلي كوبريك.
**** المقاطعة التاسعة، فيلم للسينيمائي الجنوب أفريقي نيل بلومكامب.

بالخراطيش والدّيناميت والقنابل اليدوية، على ما أظنّ رفاق زاباطا، يمسكون غوريلا الأسطورة، كينغ كونغ. بعد التّحيّة، تقدّم زعيم الخنازير

- كبيرنا يا تاج الخنازير وقاضي القضاة، أُحكمْ على هذا المستعصي بالعصا، لقد قبضنا عليه وهو يسوق قاطرة مجنونة، في المنطقة الآهلة، خارج السكّة الحديديّة.

خرجتُ من الخيمة مذعورا، أنظرُ إلى المظنون فيه، هذا الواقف، المسلسل أمام جنابي، يشبه جون غابان في البهيم* أو محمود المليجي في الأرض**. وسوستُ لنفسي: «وُرِّطْتَ يا كَوَزَكِي. لنلعب دور القاضي في ضيعة الحيوانات». موّهتُ، أخذتُ الوضع المناسب وتقمّصتُ دور ظلّ المقاتل*** بأمر اللّه. جلستُ القرفصاء واتّهمتُ الغوريلا

- أنت خارج عن قانون طاطاوين.

قال الغوريلا، (لسان دفاع نفسه)

- سيّدي الخنزير الرّشيد، أعترف بما اقترفته يدي لكنّ لي دوافعي، علّك ترى فيها أسباب تخفيف. سرت على طريق

* البهيم، فيلم للسينيمائي البولوني والريان بوروكزيك.
** الأرض، فيلم للسينيمائي يوسف شاهين، عن رواية الكاتب المصري عبد الرحمن الشرقاوي، بطولة محمود المليجي وسعاد حسني وعزّت العلايلي.
*** ظلّ المقاتل، فيلم للسينيمائي أكيرا كوروساوا.

الرعيّة. احترام القاعدة والتقليد أصبح هباء. سقطت القاعدة مع الزّمن. لقضاء حاجاتك عليك استنباط لباس ترتديه عند الضرورة. إذا كان الحَرّ مسؤولا هل ترتدي الصّوف الدّاكن إرضاء للمسألة؟ خذني مغامرا، كشّافا لنمط سؤال حديث. يا رئيسي المبجّل، في اليابان مسؤولون على عرباتهم من يسار المترجّل. اعذرني أنا أسترالي المقود.

مرافعة مقنعة وأدلّة دامغة وحيثيّات مركّزة. حكمتُ بالإفراج عن كينغ كونغ، المحامي الفصيح

- أُتركوه، إنّه مأمور.

قبِلت شرذمة الخنازير، الفدائيّون القادمون من الميعاد، الحكم على مضض وأخلت سبيل الطّريد. تركتهم يتبدّدون في شعاب السؤال وعلى ألسنتهم طعم الرّصاص.

ما هذا الهذاء يا كَوَزَكِي؟ ربّما لخبطة السؤال؟ أَشَمَمْتَ النَّفَّةَ البيضاء وتجرّعت أفيون كتماندو؟ الإدمان هلهل أعصابك حتّى عشّش الهِلْوَاسُ في رأسك وأصبحت ترى الدّيك حمارا.

تلمّست جسدي، من رأسي إلى قدمي، شاكا في أصل بني جلدي. هل أنا خنزير من الخنازير حتّى تخاطبني كواحد من بنيها؟ ليس لديّ مرآة لأنزع الشّك وأتيقّن من صحّة النبأ أو كذبه. هل عاد المسخ والسّحر إلى طاطاوين بعد أن نزع اللّه عنّا

وزر هذا البلاء المشين؟ إنّها علامات الدجّال يا كَوَزَكِي.

شغّل كَوَزَكِي محرّكه دون استئذان ولا مراعاة، أدار مقوده تجاهي وانحنى مقعده الجلديّ مشيرا إليّ بالرّكوب. نفذ صبره وأعلن: «نحن على أهبّة السّفر».

لي مع كَوَزَكِي علاقة قرابة أقوى من الأرحام. رافقني في كل المحن، أيّام الزّهد والزّهو. لم أسمع منه أفّا. دائم الحضور، في المعارك والهدوء، تحت المطر وفي الحرّ، لا يرفض لي وجهة، تحت الطّلب، يحمل معي الهمّ مغمض العينين، لا يشعرني بالدّيْن، يعطي بكرم وسخاء ولا ينتظر أجرا ولا تسديدا. مناضل متطوّع للقضيّة مجّانا، في سبيل يوم الظّفرة. لم يرخّ عجينه ولم يخذلني ولو مرّة ولم يتركني وسط السؤال.

كَوَزَكِي، رفيق العمر، يا من اسمي على جسمك، سأبكي بالدّم القاني يوم تخونك قوّة أحصنتك ويتوقّف محرّكك عن الدّوران. أُأبنّك وأبني لك ضريح الجواد الوفيّ، في روضة الدّرّاجات النّاريّة، جنب هارلي دافيدسون*. كَوَزَكِي، بجاه ربّي، لا تتوقّف قبلي. «عش أنت إنّي متّ بعدك»[1].

أَحدّدتَ وجهتك وتكهّنتَ عقبات ركضك لـمّا خرجتَ هاربا

* هارلي ديفيدسون، درّاجة ناريّة أمريكيّة.

1 من قصيدة إنّي متّ بعدك للشاعر اللبناني بشارة عبد الله الخوري المعروف بالأخطل الصغير (1885 – 1968).

من طاطاوين، مذعورا من الغُزاة المبعوثين من الرميم، قَاطِنِي مقبرة الجلاّز وسيدي يحيا وبورجل؟ هل خطوت إلى ما تصبو إليه وسرتَ إلى القدّام في ما سطّرت؟ أَلَمْ تحد عن الهدف؟ هل درست ما لك وما عليك؟ الرّبح والخسارة؟ المشكل والحلّ؟ السؤال والتّوضيح؟ طاطاوين مِن أطلنطاوين؟

أطلنطا فدائي وملاذي.

هل تسير في الاتجاه الصّحيح أم فقدت الشّمال وتُهت في الأخطبوط؟ بما تشير عليك إبرة بوصلتك؟ تتقدّم في كل الاتجاهات، مبعثرا ذخيرتك في التراب، ضاربا عرض الحائط محكّ الصّواب.

من ينوي الحجّ إلى بطن أطلنطاوين يتحزّم بعتاد السّؤال، قبل أن يرتمي في فوّهة الدّاموس. أَسألت نفسك ولو لحظة، أيّها المتعجّل على رزقك، إلى أين ومتى ولماذا وكيف، كواكب اللّغز؟ دون السؤال، أنت قملة على قشّة تتلاعب بها المسألة.

سألني كَوَزَكِي : «من أنت؟» امتنعتُ. الدنيا تلهيك، تأخذك صبيّا وتركض بك على الشوك ومشط الزّجاج الجرّاح، تدكّك بحوافرها ثمّ ترميك عاليا وتتلقّفك بأسنانها الضّارية، تجترّك وتلفظك جيفة تفوح برائحة العفن.

هل تعرف يا كَوَزَكِي لماذا لا أخاف الموت؟ أنا قادم من

حضرصمت، فناء الصّمت. ليس هناك أبشع من السؤال. السؤال مرهق. لو طُلب منّي نحته لشكّلته في صورة مخلوق لزج دون فقرات، غَوْلَم حقير يغمره الجبن، يُبقّع محيّاه القيح ويتلوّى كالدّود وينبت كالرّذالة في مصبّات المياه الرّاكدة ويتغذّى على ملح المستنقعات ويأبى النظر إلى وجه الشّمس ويخرج في اللّيل ملتحفا زيّ خفّاش.

نأتي طاطاوين وعلى ظهورنا ذنب لم نقترفه. لا تحاول التملّص وتبرئة ذمّتك. الذنب حاصل في الشَّرَكِ لا محالة. عاجلاً أم آجلاً، سيهاتفك البرق. في فنجانك يا ولدي المرض والشّقاء والمهانة والظّلم وشتّى الأكدَار. ما أطول المسألة. محكوم علينا الوصول إلى الضفّة دون سؤال، اعتباط محض. لماذا نحيا أصلا؟ هل للحياة معنى ومقصد؟ الحيرة وقلّة الحيلة. يحضر الجهل ويغيب الفهم. نخاف أن نسأل ما قبل السؤال، «هو هو»[1]. هو من هو؟

كَوَزَكِي، أيتها الآلة المتحرّكة، المأزق يحيط بنا. لا تسأل. السؤال، كلّ السؤال مطعون فيه، ضُربت من حوله أسيجة حضرصمت. الفهم أن لا تفهم.

---

1 محي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي الملّقب بابن العربي (1164 – 1240). لقّب بالشيخ الأكبر. أهمّ أعماله، كتاب فصوص الحكم واليقين والفتوحات المكيّة.

السؤال في عزلة، مسجون إلى أن يخرج يأجوج ومأجوج من الرّدْم المغلق بزُبر الحديد. عزلة الصوت في البرزخ السّحيق، يعوي وحده في بهو الانتظار. للعرب مشتقّ فصيح، أَوليس الانتظار احتضارا؟ تلك هي المسألة. في جيد أم حمّالات الحطب، داء بلا دواء. الانتظار قاتل والعسل سكّر.

في الانتظار، انتظار الانتظار، بين ضفّتي المسألة، يُسَائِل النّزيل منزّله: «أأكون؟»[1]، هي القضيّة. حتّى يروّح ويتنفّس الصّعداء، ينصرف المسؤول إلى اللّهو واللّعب والشغل. يخفّض ضغط عزلته في الموقف، يكذب ويبدع ويخترع أسباب ضآلته. يلقّح مأساته بالأمل والإيمان وفكرة الغد الأبهى. أطلنطا.

كَوَزَكِي تمهّل، مالك شارد في السؤال؟ لم نترك قدر الحليب على النّار. لدينا متّسع من الوقت. أَتدري كيف أُراوغ عَبَأَ السؤال؟ ثمّة من يمتصّ سمّ القلق والفزع الأبيض بشرب الخمر وآخر يصبّ همّه في الجنس والإنجاب وتكديس المال. يعمّرون عمرهم الفاني بالصَّخب والعَبث للهروب من وضعهم المزري ونسيان حالتهم الهشّة. لا أفق في الأفق. الحياة لا تطاق في طاطاوين.

أمّا أنا، العبد الذّي يركبك، كَوَزَكِي، يا مفتون السّرعة،

---

1 من مسرحيّة هاملت لـ شكسبير.

أقتسم معك الضجر، واضعا زادي وزوّادي على الرّقم الأحمر في عجلة القمار، في فم المدفع، أخاطر. مبليّ بالخطر.

الخطر مسكّن أعصابي المولعة، أتسلّى وأرتزق. بهلوان يتأرجح من مثلّث إلى مثلّث دون شبكة النجاة، حتما سيسقط عند الإعياء فيهلّل الجمهور: «يعيش الفنّان». شغلي نوّاس الرشيد ومضحّك الملك لير، بالضّبط، أُضحك النّاس عليه، أُعرّيه، وأتكشّف على أرذل عمره وأزدري هيلمانه وأمرّغ أبّهته في النجاسة.

قيل لي إنّ الغول خرافة والجبل لا يتحرك، حتّى لا أزجّ بسبّابتي في مغارته طعما، أُخرجه من دينه. باق على ديني، متخندقا، أداعب فرو الخطر. لا تظنّني مستخفّا بالهول، لا أدرك عاقبة تهوّري. أعذرني كَوَزَكِي، أنا مدمن على مساءلة العرش، عرش طاطا، جبّ الخطر.

كَوَزَكِي، أنصت لي مليّا لتعي كبر ذنبي. سين لام طاء، والسلطة إذا تجلّت وارتفع قوامها وزأرت، تسقط أعمدة المعبد على رأس شمشوم. السلطة وجود وفناء، قضاء وقدر، حيّ قيّوم أزل، سائح على وجه الجبر المتهندس في الكون الدامس. شيء، فعل، اسم، يرتدي عباءة من حديد، بلا مُحيّا، وحيد العين، عديم الأنف والفم، أذن عملاقة تلتهم الوَحشة

والصمت الرهيب. المنتظر صائغ الانتظار. إنّها عزلة النفوذ، النفوذ المحض. في بطن النفوذ، كل شيء من شيئه، أشياء خلقها وسوّاها، ثمّ يأتي عليها.

السلطة تستمدّ سلطتَها من سلطتِها. لا مصدر لها ولا نهاية ولا منتهى. القبل والبعد. صوت الفزع في السؤال الخالد. خلود سئم الخلد. المومياء* الأسود. السلطة الصِّرف حين تتجسّد وتصبح مرئيّة، حركة يتلمّسها العبد المسكين فتتحوّل إلى سباق وركض ومعركة ودسائس ومكائد ومكر وحيل وغدر وتحالف مع الشيطان والملائكة إن لزم الأمر. المهمّ الاستحواذ على سدّة العرش. كل شيء مسموح به من أجل الفوز بعرش طاطا. الأب يقتل أباه والابن يقتل أباه والأم تسمّم الملك الأب والخال يتزوّج الأخت الملكة والخان يستبيح مدن الصين المحرّمة وأبرهة الحبشي على الفيل.

كلّ الروايات والحكايات، من العيّارين إلى الشطّار**، التاريخ كلّه يؤرخ لمسرح القسوة. السلطان قاتل أو لا يكون، آكل لحم البشر. السلطة السلطة لا تعترف بالأخوة والأبوّة والأمومة وذوي القربى وكلّ الميوعة الأخرى كالعدل والرأفة والإحسان والإنسان.

---

* المومياء، للسينيمائي المصري شادي عبد السلام.

** الشطّار والعيّارين (حكايات في التراث العربي) لمحمد رجب النجار.

السلطة لا تعترف بخليط الأجناس، فلا تدخلوا عليها المُلوّث من الأخلاق والمبادئ وقيم الدواب، لا قاعدة ولا سقف يحدّها. هي القاعدة والأسّ، السنّة والتأويل.

السلطة طير كاسر، رخّ، طير الأبابيل، تنّين يطير ويشعل الأرض نارا. أسماؤها القوّة الغاشمة. القوّة فقط. من امتلك التنّين وامتطى ظهره له الغلبة. هو هو. ليس كل من على رأسه تاج أو جالس على الكرسيّ باقٍ. القويّ، مالك القوّة، هو هو. السلطان المبجّل، ذو القرنين، راكب الحصان المجنّح، من له قياده جيش عرمرم، فرسان ومشاة وطيران وبحرية مسلّحة. الملك الشديد يملك مال قارون ليسلّح ويلبس ويطعم جنده. السلطة مال وسلاح، مال لبناء الثكنات وتجهيز القواعد وعسكر لحراسة المال. وسط هذا وذاك مهرّج ومشعوذ وبهلواني وكاهن لتسلية سقط المتاع، الرعاع، بالسحر ومسرح الدّمى وأسطورة أطلنطاوين وعذاب المقابر ولذّة النّاسك المستكين.

لا أدري لماذا كلما قرأت شكسبير أو أعدت النظر في تاريخ عبد الرّحمان بن خلدون أو أخذت بطرف فيلما لأورسن ويلز الأمريكي أو لنظيره الياباني أكيرا كوروساوا، أتأدّب وأنزع من رأسي ما علق من تُرّهات وأفكار مغلوطة عن لبّ العرش، عرش طاطاوين. تَرَاكَمَ الكذب.

قيل لي، يا كَوَزَكِي، إنّ عرش طاطا نظم ومؤسسات لإدارة الشأن العام، كما قيل لي أيضا إنّه تشريع وتنفيذ وقضاء. استهبلوني بالسّلطة للشعب وكل الخزعبلات التي أنتجها الإغريق، جمهوريّة وديمقراطيّة، أضِفْ إليها حريّة وأغلبيّة ومساواة وعدالة. وحتّى تُضيع السّبيل، قاموا بمحْي أثر خطى السلطة واستبدلوها بكلمة برّاقة، حشو، لا تعني شيئا، نزجّ بها في كلّ مقام ومقال، الدّولة.

أصل الحكاية، السّلطة منذ البدء والتّكوين، غموض لم يهتد إليه إلاّ مخلوق لقّنوه منذ نشأته أسرار العرش. يولد الحاكم متَسلّطا، تختاره النّجوم في الفضاء الفسيح، ليكون. كنْ فيكون.

كلّ العلوم وكلّ الفنون الصّحيحة، ما تعلم وما لم تعلم، الشّعر والهندسة والتّشريح والرّقص والابتهالات والإحصاء والتّجارة والطّب والتّكهنات والطّقس والجغرافيا والدّيموغرافيا خرّت للعرش وأقرّت له بأنّه الأقوى. طاطا، القوّة لك والنّفوذ أيضا.

قال كَوَزَكِي: «أعوذ باللّه من غضب اللّه. مالك يا راكبي ومال العرش؟ أَلا تبحث لك عن سلوى أقل خطرًا تناسب جِرمك؟ وزن الرّيشة يتطاول على القفّاز الثّقيل؟ أَتَخَالُك

«تايزون» من حديد؟ أَفتى الحلبة أنت؟ تريّث وأنظر من حولك إلى أبناء عمّك وجيرانك يحتضرون دونما تملّق أو تكلّف. كفّ عن التكبرّ. باطل كلّ ما تدّعيه. أَلا تنتظر مستحمدا ساعتك في المرحاض (عفوا، بيت الراحة) كالنّاس؟».

استدرت كـ«دراكولا»، دُوقُ جبال الكاربات، المستذئب عند اكتمال الهلال، عظمت أنيابي وغرستها في خزّان بنزين كَوَزَكِي. «عجبي، أَسَأَلْتُكَ النّصيحة؟ تَوَعًّ. مُرادك نزع مروءتي يا جلمدان؟».

هل هناك رجل حافظ على سؤاله، عاش ومات مسؤولا؟ كلّنا نولد وفي بطوننا مدّخر من الفخر وعزّة النفس. لكنّ طاطاوين، هذا الصّدأ، السّوس، ينخر الجبل، يحوّله إلى منبسط سهل. عاشرت رجالا في صباهم وإذا برجولتهم تنحدر إلى الأسفل كالدّمع على الخدّ الشّاحب.

عرفتهم شعلة، يتّقدون ذكاء، تشتري صداقتهم، تحلم بمجالستهم وبردّ الكأس عليهم. نار وقّادة في الهشيم، تقترب منها تشتعل. بجانبهم لا تشعر بثقل السّاعة وأرقِها، تصبح جميلا، ذكيا، هادئا، مطمئنًّا، محميّا. فراق الواحد منهم مُعْي، غيابه وجع. يـمْلأُ حياتك بحكاياته وحذق كلامه وطيبته وكرمه. لّما تشاهده يمرّ، تقول: «نوّاس في الأرض».

عمّار، مارد تخاف منه الغوريلا، حطّاب يدفئ بيوت النّاس. ثمن المدفأة، يحتفل به عمّار كلّ ليلة، على حافة وادي سرّاط، قرب القنطرة. يسكر ويغنّي ويرقص، حتّى ترتعد ركائزها المشققة.

تزوّج «عمّار» بفاتنة الحيّ، «زهرةْ» التي أغرته بمفاتنها وسلسلته بدلالها وقوّست ظهره بمطالبها، لا يشبعها حرير الهند وعاج السودان ولحم الغزال وعسل النّحل.

الحطب لا يكفي.

أهمل عمّار الخمر والرقص والغناء، صار يمشي على أربع. الجبل تحوّل إلى أرنب يخاف القردة بعد أن كان يروّع الغوريلا. زهرةْ ألبسته القناعة. كلّنا عمّار، وزهرةْ التفّاحة.

تمرّ السنون، تفترسك مشاغل الأيام ويبتعد الصديق عن جوار مقلتيك. تضيع العلاقة في المعترك، في الجغرافيا، في الغوغاء والضوضاء. لم يعد جارك، ضيّعت عنوانه ورقم هاتفه وصندوق البريد. نسيت حتّى ملامحه وذوقه. ماذا يرتدي، وأحبّ الطعام إليه، وهواياته وغواياته. ما يهوى من سينما وأدب ومسرح ورقص وطرب وموسيقى وما أحبّ إلى نفسه من العطر والنساء.

سنة تكفي، كأنّها خمسون، وإذا بالصديق، ذاك المغامر،

المقامر، المتوغّل في شعاب طاطاوين، أمير الأزقّة ولياليها، سيّد الحانات والكازينوهات، رجل سافر إلى السؤال، عاشر صيّاد الحروف وذاق متوسّط الحِجْر من أصفر وأحمر وأسود وأبيض وأزرق، ما طاب، نيرودا يعترف: «يحيا يحيى».

تعترضه في الشارع الرئيس كأنّك تعترض شبحا، مسخا، مُسَوَّدَةً عنه. أين الرأس المرفوع والأنف السّوداني المفترس وقلب الغضنفر؟ أين الرَونق والضّوء الذّي يشعّ من بطنه؟ أين الغوريلا الذي تُسقط عينك عند ملاقاته على الرصيف ليسمح لك بالمرور في أمان. أين سبارتاكوس الذّي تشتمّ منه رائحة الكركدن؟

عام كخمسين، يعترضك عمّار، توأم محمد علي، خافتا، باهتا، لا ظلّ له، أصلع الرّأس، لا بريق في عينيه ولا دم في محيّاه. جمرة وانطفأت. أين المقاوم الشّجاع؟ أين المقاتل؟ أين المغوار؟ ما الذّي مرّ به وانتزع منه تلك «النفس المحترقة التي ظننتها لن تسكن البتّة»[1]؟

رأيته موظّفا في بدلة موظّف، رئيس مصلحة في شركة الغاز والكهرباء، يرتدي كسوة شخمة ورباط عنق أحمر وسروال تِرْڨَالْ مبقّع بالزيت وحذاء مذبّب، حذاء «مَاجُولْ» أو صْبَاْدِرِي غْزَالَهْ ومحفظة كَاوَتْشُو سوداء. تساقط شعره

1 أبو حيان التوحيدي

وتضخّم بطنه وازدوج ذقنه. من هذا المسكين الذي يشبه ناظر معهد طاجروين؟ نسيت اسمه، صورته فقط علقت بذهني، لطالما عبرّت عن تلك الطبقة الوسطى البليدة الركيكة. خائب. أسد منتّف كقطّ البالوعات. خفت نوره ولُعن وجهه واقتُلعت أنيابه. خيبة الأمل تفوح منه. ما هذه الجثّة الهامدة عديمة المسؤولية التي لا تسأل؟ باع ظلّه لبائع الآجر.

أردتُ أن أمرّ كأنّي لم أعرفه قَطّ، لكنّ صاحبي، هذا القطّ المألوف، قطع عنّي الطريق وارتمى يحضنني ويقبّلني

- شْنُوّهْ لَحْوَالْ؟ مْدِيدَهْ آهْ؟ تْبَدّلْتْ عْلِيكْ؟

- شْنُوّهْ تْبَدّلْتْ.

كدتُ أصرخُ. نَعْلْ بُوهَا الْبْلَادْ إِلِيّ تْذِلْ الرْجَالْ. لكنّ الذلّ رصاص لا يصيبُ غير الشخص الذّي ينبعث منه الانبطاح. مغناطيس.

ليس صدفة أن تكون مسكينا، لا بدّ أنّك ولدت وفي متاعك مسكنة. بيني وبين نفسي، صعد من صدري ما علق من خطاب أبي التراب، أمير الفقراء، علي بن أبي طالب، كرّم اللّه وجهه: «يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال عقول ربّات الحجال، لوددت أنّي لم أركم ولم أعرفكم معرفة».

عمّار كان حاملا لداء الذلّ كالسرطان منذ الولادة، استوى الآن في طوره المقيت، ينهشه، متربّعا داخل روحه. أصله الأصيل ذليل، مُشاله مَنْكُوسْ، مَا عَنْدِي مَا نَعْمِلُّو، الذّلْ يِسَكْسِكْ. اللّهْ لا تَرْحِمْلُو عْظَمْ.

كَوَزَكِي، يا بهيم الإسفلت، عُدْ للإخوة «كرامازوف». «ناتاشا» تلك المرأة المثيرة التي تعلّقت بالموسيقار البولوني وعشقته حدّ الجنون. لأجله باعت جسدها. يوم الحفل الذّي أقامه «ديميتري» المارد - مَن تشتمّ منه رائحة الوحوش الكبار - انفلقت صورة الحبيب البولوني وتقزّم. مات الحبّ الكبير. تلك هي «زهرةْ»، لا تحب إلاّ الجبّار، الرّعد، القوّام.

ما أبعد «عمّار» عن «ديميتري» الخطير. ها هو يتكلّم كلام تلك الطبقة الوسطى الركيكة، سكّان طاطاوين الأصليين: «آشْ ثَمّهْ جْدِيدْ؟» الجديد عنده، ركاكة المساكين، في المطبخ وبيت الغسيل، طأطأة رأسه قدّام بائع الآجر، الزّكام والسّعال.

أين «عمّار» الرّاقص؟ أين الطفل الذّي كان يقف مشدوها أمام زهرة تتفتّح وحَجر أخضر يسقط من أعالي جبل سيدي البوهالي؟ أين القرد الضحّاك؟ أين الزير؟ أين يوسف الذي إذا دخل المحفل، ترتبك الأيادي ويجرح الموس كفّ زليخة؟ عمّار ولّى مقرفا، ثقيل الدم، يجلب النّعاس. غسلت غلظ الدم وروّحت.

طاطاوين، منبسط الأرانب، سوق الانتظار، تعيش فيه نصف نطفتي الحلال. لا أدري كيف نجا من شباك الحياة، ربّما لم تعترضه الأرض بوجه زهرهْ أو ربّما ليس له ذريّة تشدّه إلى تحت. لا أعرف له شغلا، دائم التجوال، من الجنوب إلى الشمال، من برج الخضراء إلى بنزرت. «المهاجر».

«محمد علي» (محمد علي الحامي أو محمد علي كلاي أو محمد وعليّ، اسمان، من بني هاشم، في اسم؟) اشتغل مهنا شتّى، نجّارا، راعي أغنام، زبّالا، حارسا ليليّا، سائق شاحنة، مهرّب بضائع، بحّارا، خبّازا، نادلا، ملاكما. في أغلب الأحيان، عاطل عن العمل. الأمراء لا يشتغلون. لم تدجّنه الأعمال الشّاقة ولم يركب ظهره لا الدولاب ولا بائع آجر.

في سجن المرناقيّة، زنزانات وانضباط ونَوم على الاسمنت. محمد علي ذاق الضّيق، يخرج بعد العقاب كما ولدته أمّه، الرأس مرفوع واللّسان مطلوق والعين تضحك والأنف زنجيّ. أحبّه لوجه اللّه. أحبّ أن أحضنه كما يحضن الحبيب حبيبته وأشتمّ رائحة الكركدن وأذوق ملح جلده. أحبّكُ.

«محمد علي» لم يخضع لـ السِّيسْتَامْ. الرافض للأمر، حذف الـ نعم واستبدلها بـ لا التساؤل، على الدوام. لم يقطع مع الطاعة، بل ولد غير مطيع، مقطوع من شجرة، عاص عصى

المذلّة، مستنكرا، محتجّا، مقاوما، رافضا لهيمنة كبش القطيع، يناطحه ويُهزم، لكنّه لا يقرّ بأنّه الأجدر.

«محمد علي» الخارج عن الصفّ، الثّائر، الدغباجي، «هَتُولِي خْصَانِي ومَقْرُونِي ونْشْقْ الْخلَاءْ»، المعترض، قاطع الطريق، شريف القوم، أمير المدينة. خطر على سهل طاطاوين، منبسط الأرانب. «محمد علي» طير كبير وسط سرب اليمام، ذئب أبيض سهل التعرّف عليه، يتبختر أعلى الأطلس. القُبَرَّةُ التي قتلت الفيل.

كلّنا، عمّار وزهرهْ وطاطا، نطارد محمّد علي ونُلاحقه، من وطاء إلى وطاء، علّنا نقضي عليه فنقضي على آخر سلالة السائلين، حرّاس لا النفي، أعداء الأمر.

من أين له بهذا المعدن؟ أظنّه صنع نفسه بنفسه. لا دخل لي في قماشه. تحرّر وحرّر كتابه.

جبينه العريض، حائط سميك، ترتطم عليه النصائح والمواعظ والوعود. لا يُشترى ولا يُبتاع. ياقوتة غالية. لم تفسده أفكار الأذكياء. الكتب أصدقاء له، لا آباء، يقرؤها، يتسلّى ثمّ يودّعها ويرحل إلى مقصد كتب عنه السابقون الأوّلون. مقصده شكّ المعتزل. شكّ يناطح محكّ مارون عبّود[1]. الهلع من شكّ محمد

1 للنّاقد مارون عبّود (1886 – 1962). أهمّ أعماله، على المحكّ وحبر على ورق.

علي. جرى حديث بين الشيطان وايفان. قال الشيطان لايفان: «يجب أن تشكّ وتجحد، فدون الشكّ والجحود لا نقد. ودون النقد كيف ننقح ونهذب؟ اذا توارى النقد لم يبق إلا أوصانا وهذا لا يكفي. يجب أن نضع التقريظ والنقد في كفّتي الميزان. ومع ذلك فما أنا الذي اخترعت النقد، ولست أنا تيس الخطيئة. يجب أن أنتقد لأنّ النقد أصل الحياة»[1].

ربّما أخذ السرمد عن غول الكلام: «أيَّ مَحلٍّ أرْتَقي / أيَّ عَظيم أتّقي / وَكُلّ مَا قَدْ خَلَقَ اللّه / وَما لَمْ يُخْلَقِ / مُحتَقَرٌ في هِمّتي / كَشَعْرَةٍ في مَفْرِقي»[2].

خرج محمد علي من كِيسِ مهريّهْ معوقًا، بُتر فيه عضو الخوف، الخوف من الجهل والفقر، الخوف من عرش الموت، حضرموت، فناء الموت، طاطاوين. لا أعرف أحدا، غيره، لا يخاف العرش. لا يخاف، ليس شجاعة، إنّما سئم الخوف.

كلمة حقّ، شجاعة محمد علي لم تبق على ما هي عليه، السوس نخر شطرها وقضمه والخوف ملأه. عاش محمد علي بنصف قلب، هزبر سافانا هَكُونَا مَاتَاتَا في كينيا، جنان امرئ القيس ومنتزه المكترث. كان يقول عن اللاّتي والذين لم تُمسّ شجاعتهم

1 من رواية الإخوة كرامازوف لـ فيودور دوستويفسكي (1821 - 1881). أهمّ أعماله، الجريمة والعقاب والأبله.

2 من قصيدة أي محل أرتقي لـ أبي الطيب المتنبي (915 - 965).

وحافظوا عليها كما هي: «لم يحيوا الحياة بعنفها وغدرها ومكرها، سقط الذكور». إنّه الشيخ والبحر*، الباطر يونس الْتَهَمَهُ الحوت وخرج من كرشه مرعوبا من الظلام الأبيض.

محمد علي، الطفل، اهتدى إلى ما وراء السؤال، ليس هنالك أبشع من وطأة العرش، العرش الواطي يجرّك إلى العفن والجيفة. العرش جبّار يخضع الجبال على رمي معاطفها[1]. المروءة لا تُهدى، هي درس الصّنديد ودربُه. أكره ما يكره نزوات الأغنياء وحكمهم على الفقراء. مسألة شرف، مع الضعيف ظالما أو مظلوما، زُغلامي حرّ. ضدّ الأقوياء حتّى لو لم يكن في حسابهم مثقال ذرّة شرّ. للمشكّكين، يقول «محمد علي» : «إنّكم لا تعلمون نذالة الأثرياء».

بإحدى مقاهي باريس، الضفّة الغربية، كان أهل الكتاب، همنغواي وفيتزجيرالد جالسين. غنيّ من التكزاس، ربّما يملك بئر بترول، يعبر الرصيف، يرتدي قبّعة رعاة البقر، جيبه منتفخ بالدولار. سأل همنغواي

- هل الأغنياء بشر؟

- لا، إنّهم قادمون من الكوكب البرونزيّ، لا يأكلون ما

---

* الشيخ والبحر، قصّة قصيرة لـ إرنست همينغوي.

1 من قصيدة أحمد الزعتر لمحمود درويش.

نأكل، لا يلبسون ما نلبس. يسألون.

- هل يتزوجون مثلنا؟ هل لهم أبناء؟ أَيحبون ويكرهون ويحسدون مثلنا؟ أَلديهم فؤاد؟ لّما مرّ هذا التكزاسي الغنيّ، هل شاهدنا، هل أحسّ بوجودنا؟ هل علم بما في صدورنا؟

- هذا الثري ليس بشرا. عوض السؤال لا تحركه غير دابّة الآجر. أُشفق عليه. إذا مرّ بجانبي ليلا، في الزقاق، سأشوي لحمه المُشحِم الشهيّ.

- أودّ أن أكون غنيّا. أقتل نفسي ليقول النّاس، قتل همنغواي غنيّا.

تمرّس محمد علي على عدم الخنوع والقنوط. شحّاذ مسؤول على أمّة الشحّاذين. في البطّاح، على ظهر البحر، فوق الخطر، يكافح ويجذف المتعارف عليه والمسلّم به. من قتل تاجر البندقية وبخيل سمرقند؟ القبرّة تنكح الفيل.

لا يعرف ما يحبّ. يعرف ما لا يحبّ. حبيب تيزي، المتعجّل الذي لا ينتظر، مكافح، زاده الطيبة والكرم والقسمة. نتعاون على الضجر. البرتقالة الموزّعة بيننا تكون ألذّ. محمد علي يجاهد من أجل اكتشاف القّارة المفقودة، أطلنطس، لا ليحوزها لوحده بل حتّى تكون برتقالة مُشاع، الأرض المحرّرة، أطلنطاوين.

قال كَوَزَكِي: «من أين لكَ برباطة الجأش يا كَوَزَكِي الأب؟

متوتّرا توتّر القــوس، جامحا كــالرّمح، ألا تستريح فتريح؟ بيت الراحة شاغر». قلت: «أنا على مذهب الشنفرة، مرابطا أعلى القلعة، أرقب ليلة القدر، طامعا في الفهم والرّزق. بليار دولار تحت الكرمة الصلعاء في بهو الدّار، في سيدي حمد الصالح. دم تاجر البندقية حلال زقّوم. شُبّيكْ لُبّيكْ، أَنَا عَبْدِكْ بِينْ اِيْدِيكْ، أُطْلِبْ تَعْطِيكْ. حلال عليكم، حرام عليّ؟ «بَالْزَاكْ» شرح المسألة، ذات ليلة صيف عابرة: «وراء الثروة جريمة». بُشّرت بأطلنطس، كذاك الذئب الذي أكل شرطيا.

أَتَريد أن تعيد مآثر جلجامش الملك الفيلسوف وتسرق نبات الخلود من جوف الصفر وتشرب علقم الكأس المقدّسة وتسلّ «ذو الفقار» في وجه النّكبة؟ كأنّي بك المنتخب المختار. قلتُ: «أنا لست المختار. أنا كَوَزَكِي، الإنسان الناريّ».

المسرب يلحّ. يقيني سبيل البرمكيّ.

آمنت إيمان العجائز وصدّقت مفتوح العينين: «لو تعلّقت همّة المرء بما وراء العرش لناله». قال رسول اللّه: «أنا مدينة العلم وعلي بابها». أنا من المحمديين المتزمتين، أسيء لمن يسيء له. لا تبحث كثيرا، قُلها وابِق على دينك: «نور قذفه اللّه في صدري»[1].

لا تَشْقَ في السؤال، أُرشدك اليمين، الفطنة تولد بالفطرة، أمّا

---

1 الإمام الغزالي

اليقين فهو ابن الصدفة. تفّاحة الجاذبية سقطت على رأس نيوتين وقاعدة أرخميدس نزلت عليه في بيت الراحة، خرج يهذي «أوريكا أوريكا»، «وجدتها وجدتها». لم يجدها. موجودة. هبة وهداية. محظوظ الصدفة ومختار اللّحظة.

كِدتُ أجنُّ لمّا وقعتُ على قرطاس الحرف المفقود، أصبتُ بالرّمد لمّا ثار رهجه في وجهي. أمسكت به ومِتّ هناك حتّى ربض. لم أفهم. الفهم أن لا تفهم. «سأجد معنى جديدا، بكل حزن وكل ابتسام / في السكون الموحش، سأسمع صوت روحي فأعرفها / متحررا من هذا العالم، سوف أطأ عالما أبعد / عالـمًا جديدًا ، حيثما يكون المنتهى هو عين المبتدأ»[1]. افتح يا أطلنطس ماءك.

قال تعالى: «يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» (مريم 12). البداهة وضّاحة، صفاء الماء. الماء قبل التنفّس ورضاعة الثّدي والنّظر والتلمّس والشمّ، «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ» (الأنبياء 30). ديك يصيح في الصّبح، أَقْبِل أو أُقْبِل. اللّسان فوق القلب والمخّ، التعبير قبل الجسد. تعبير عار، حاف، ضار، كما في ماء أمّه. التعبير سبّاق. إذا ملكتَ التعبير عُتقتَ. دونه لا

1 عن الإمام أبو حامد محمّد الغزالي (1058 – 1111). أهمّ أعماله، مقاصد الفلاسفة وتهافت الفلاسفة والقسطاس المستقيم.

اختيار ولا غضب ولا احتجاج ولا ثورة. منه نصرّف الأفعال. قلْ «اِرحلْ»، حتّى تضخّ فيها الماء. إمّا تعبير وإمّا فلا.

لدى طاطا، عرش الصمت شهوة دفينة، تطويع الماء، أثمن الأعضاء، اللّسان الرطب السّمين. طاطاوين هشّمت روح الأبجديّة على صخور من فولاذ. لا مسرح ولا سينما ولا شعر ولا قصّة تروي متسوّل شربة الماء. لم تعد هناك مقطوعة موسيقى واحدة ولا راقص. كل مساجد الكتاب قُصفت بقنابل النابالم الحارقة. فجأة، اندثر الماء وانتقل إلى زحل، العملاق الغازي. أهل الفصاحة والنّدامة هجروا الوضوء. الصمت الجفّاف.

السّائل، حارس اللّسان، التعبير إصبعه السّادس، اِحفظه كما تحفظ الأمّ ابنها المشوّه، لا تتخلّى عنه، رغم العرش وحضرصمت. اِلتزمْ. حيّ على الصلاة. ركبت كتاب يحيى قبل الغفق. أحيا. ملزوم الماء.

كَوَزَكِي، يا بكمة، اِعترف بالسّائل. اُدخلْ شرخ فاهي، تر الماء يعبر. لحمة حيّة، دائمة البلل، ليس لها عمر، علّمت إدريس كيف يطيل عمره الفاني وأنزلت أرمسترونغ على القمر ودخلت معامل الفولاذ في شيكاغو وعاصرت تجارة القطن والعبيد وجلست مع هُوشِي مِنْهْ على طاولة المفاوضات وشهدت على عناد غاليليو: «ومع ذلك فهي تدور».

حفا الصامت في انتظار غودو* ولم يجفّ الماء. أتى عليه الدردور كما أتى على ماكندو، من عام الفيل إلى قرن العنكبوت، الانترنات، في المسألة، لا يكلّ ولا يملّ، طاقة ذريّة.

قال تعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبّكَ الّذي خَلَقَ، خَلَقَ الْإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأكْرَمُ، الذّي عَلّمَ بِالْقَلَمِ، عَلّمَ الْإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم» (العلق 1، 2، 3، 4، 5). بين الكلام والقلم مسافة حرف ويصير الكاف قافا.

إذا تجسّد اللّسان كتابا تصطكّ له الكواكب، تتكلّم الأيادي في خلوة الضجر، تخطّ العبر والمبتدأ والخبر. تتسارع الألفاظ من الصّدر إلى الحلق حتّى القلم، لتنفلق رصاصة أضاعت وجهتها. الكاتب قنّاص، يعدّل ويصوّب لينال جوف الصفر. حذار، لا تمرّ في مجال سؤاله.

الأيادي المتكلّمة تمرّدت على فناء الكلام. القلم درعها ونبلها. القلم مهندس في الجبر يقتطع الماء من السّماء المشتبكة ويهديك غيمة الرّشيد. برد وتبيان. ساعي البريد ولقلق فصل اللّقاح. ولاّدة.

يُهاجر عنوة أو طواعية، اضطراريّا أو اختياريّا، يُنتشل منه

* في انتظار غودو، مسرحية لـ صمويل بيكيت.

السّائل، يجفّ حبره ويأكل البعوض رُقع معلّقاته، يبقى ماؤه في المائدة وصخرة الشطرنج. مفتون السؤال، لا تتبعوه، «وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُون، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهم يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ» (الشعراء 224، 225، 226، 227).

شككت أنّ الكاتب آدميّ من لحم. سائل هو. لا أدري من أين له بهذا الهدير، كلّ ما يُسيله بدعة وتكبّر. شراب لم يعصره من قبله عنب. صبيّ لا يتورّع عن قول قولٍ يَنفر منه الكهول والصغار. كلامه سهل، لا تستطيع تقليده. سألوني من كبيركم قلت مرغما: «وا حسرتاه... ابن المقفّع». أَقتله وأسطو على كتابه وأنشره باسمي. لي الثروة والماء وكليلة البديعة. يا ناري.

اعذروني، لست مِن حسّاد الأثرياء، أصحاب الجاه والقصور والبنوك و«الفرّاري»، بل أنا حاسد حرفيّ اللّفظ وصائغ الأدب ومبليّ الماء. اِعترفْ بالنديم. لم أر قطّ سائلا يهاب السائل كما يهابه ابن المقفّع. يخافه كما يخاف الفَراش النّور.

هل الكتاب صْنِيعَهْ وإلّا خْلِيقَهْ؟ أكل وشرب ونوم؟ الجلوس على طاولة السؤال، وضع الماء، ليس من مهام ابن الإنسان. وحده لا أحد في المرّيخ، التجأ إليه ليراوغ العرش ويفلت من قبضة خمسين ألف عام من الوحشة.

لِمَنْ أدرك تفاهة طاطاوين وتكشف عليها، حضرصمت،

السؤال يهبك أثمن شيء، العزلة، لتتّق مسكنة النّاس وإذعانهم، لا أيّة عزلة، بل عزلة ابن الإنسان في الماء، عزلته أمام القلق المدوّي والظلام الأبيض، ما قبل وما بعد الماء. الأيادي الماسكة بالقلم تهرب إلى الماء. المسؤولية.

الكتاب مقيت يُميت. سيجارة المحكوم بالإعدام. كل كلمة بعام كخمسين. الكاتب عمر المومياء. الخلد لسقراط. يبكي وحدته، الكتاب مغارته، موطنه إن شئتم. لا توقظوه، إنّه ماء متلبّس بهالة الحرف النَيْء، يصرخ كفرعون، ومضة ويمضي.

الكتاب كيمياء وعقاقير وفيزياء، وَحْي من خضمّ العيش وحضرمته على سطح طاطاوين. قليل من الموهبة وكثير من المشقّة والعرق والبخت. تدريب وممارسة واجتهاد تحت عصى مقرئ حزين. عناء التقاط الكلمة الدّقيقة، البريئة، البرّية، السّهلة، الخفيفة خفّة الرّيشة، المعبرّة، الشّهيّة، التي تشبع وتروي سائل شربة الماء. زكّيها بالتنقيط والفواصل والاستفهام والتعجّب وإشارات الاستدراك والاعتراض لينتشي الكأس.

القلم (كُومِيسَارْ) يقف كالملاك رضوان، لا يقبل من أحد صكّ غفران، يدقّق سيولة المعنى، يرقّع ويفكّك وينفّس الكتاب ويعدّل ميزانه. يستمع إلى موسيقى الحرف واصطكاك القاف والكاف والنّون، يحذف ثقيل اللّفظ، وينفخ فيه من روح

أدبه الصّغير والكبير، يجذّبه ويرونقه ويلبسه الأنيق والجذّاب ويعطّره بأحسن العطور ليخرج المكتوب جاهزا لردّ الكأس. «لا يدخل علينا من لم يكن مهندسا»[1]. حذار من حرف الجرّ.

ورشة الريشة بمثابة المطبخ وبيت الغسيل ومكواة الطيّ، إذا كان في المكتوب معدن صالح لليّ والصنع والحدادة، تنبض منه بوادر تأليف رشيق، مضبوط، يجلب الاهتمام، فإنّ الريشة تدرجه في سكّة الأرتال قبل تصميم البيت وتركيبه، تعطيه تذكرة العبور. لا أحد ينجو من الريشة، حتّى كبير السَّحَرة. كلّ العبارات سواسية يوم الختم.

الريشة مع الجملة اللولبيّة ضدّ الجملة المحنّطة واللّغة الميّتة والسُّنة، لغة الأب، اللّغة الرّسميّة، لغة حضرصمت الأيادي التي تتكلّم[2]، مسؤولة على جدول العبارات، مع ضوابط وأسّ الكتاب، كتاب خالٍ من الجغرافيا والتّاريخ والطّقس والعمران، أرض ومدن وسكّان وحركة وبركة ومغناطيس، لا يمتّ بصلة للكتاب. أوراق لقيطة، لا أصل ولا فصل، كشوارع «نيوطاجروين» التّي تحمل رقما لا اسما، غبار في المجرّة.

1 قولة لـ أفلاطون، كُتبت في واجهة الأكاديمية التي أسّسها بقرب حدائق أكادموس بأثينا.

2 من كتاب مجتمع الفرجة لـ غي ديبور (1931 – 1994)

أين الجغرافيا يا كَوَزَكِي؟ هل البلاغة، تلك المومس، هي من وسوست لك بالبخل؟ أظنّك تعني «طوكيو»، ورشة صنعك، فَلِمَ احتفظت باسمها في صدرك؟

دعني أصوّر لك الخرائط، عليها ما عليها من جبال وأنهار وغابات أشجار وسهول وبحار وزرقة وجزيرة وخليج، تحتاج لمن يعطي إلى مدنها وقراها، أسماءً من عجين أطلنطس. اِنصرفْ من بعد إلى الإحصاء والديمغرافيا.

الكتاب قاطرة مجنونة بلا قائد، يقودها «كينغ كونغ» إلى محطّة «لنثار محاميد». ينزل المسافر ليوم السؤال. اعبرُ الصّراط وادخلْ مدن الدخان آمنا وإن سئلت عن كلمة العبور، قلها دون أن تسأل

أُكْتُبْ

هل هنالك لذّة ألذّ من اللّذة؟ لا تخجل ولا تتورّع عن الكلام في المباح . الأير والفرج والبظر والثدي والفخذ، عبارات مألوفة أو بريّة في أرض اللّه الواسعة، سمّيها بأسماء الطيّبات والطيّبين. شهرزاد تغامر في «البورنوغرافيا» : «وجعل لذّة التقبيل في الفمّ والوجنتين والرقبة والضمّ إلى الصدر ومصّ الشفة الطريّة مما يقوى الإير في الحال، الحكيم الذّي زين بحكمته صور صدور النساء بالنهود والرقبة بالقبلة والوجنتين بالحرص والدّلال

وجعل لهنّ عيوناً غانجات واشفاراً ماضيات كالسيوف الصقال وجعل لهن بطوناً مُنعقدات وزينهن بالصورة العجيبة والأعكان والأخصار والأرداف الثقال، وأمد الأفخاذ من تحت ذلك وجعل بينهن خلقة هائلة تُشبّه برأس الأسد في العرض إذا كان مُلحماً ويُسمّى الفرج فكم من واحد مات عليه حسرةً وتأسفاً من الأبطال وجعل له فماً ولساناً وشفتين شبه وطْءِ الغزال في الرّمال»[1].

تفطّن يا كَوَزَكِي، الكتابة خفّة روح ومرح وتشويق وإذا انقلبت إلى همّ ونكد تهجرها الآذان والنفوس. في دباجة كتابه الممنوع على الأقلّ من ثماني عشرة سنة، يقول التيفاشي* : «وجعل مُلحَ الآداب جلاء للعقول وصيقلا لصدأ الألباب، وحبّبها لأهل المروءات في الخلوات كما حبّبها لهم في الجلوات. وجعلها مع الخواص من الحسنات، ومع العوام في السيّئات».

اِفتحْ الكتاب إذا غطّ اللّيل وانتفخ المدبّب وانفرج الفرج. أُسكبوه. كتاب خاو خواء آدم أوّل خلقه، تدخل من دبره تخرج من فاهه دون أن تقف عند محطّة، تكتكات وخرخشة وتلويك لسان، لا انطلاق ولا وصول، يُستأنف في المزبلة.

---

1 من كتاب الروض العاطر في نزهة الخاطر للشيخ محمد النفزاوي.

* شهاب الدين أحمد بن يوسف التيفاشي (1184 – 1253)، عالم معادن وقانون واجتماع وفلك وشاعر. كان قاضيا في قفصة ثمّ عزل من منصبه بعد العثور على خمر في داره.

قيل لي بازدراء وتهكّم: «أَتَخال نفسك كاوابا‏طا*؟» «لا. أقوى. أنا كَوَزَكِي». لا تُبالي. نحن أمّة لغة الصّدر، نزلت على رسول اللّه : «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا» (المزمّل 5)، كالماء الثقيل، الماء النووي. نحفظ ونقرأ ما في الصّدر ونخطب في الملأ. تعلّم منّا مارتن لوثر كينغ فنّ الخطابة. نُطقه المنزّل حتّى الجهر، تليه تلاويح الأيادي وتعابير الوجه وبريق الأعين وتمطّط العنق: «آي هاف أو دريم». لديّ حلم يطير. من هذا الصلصال، حرّرنا وتحرّرنا، بالنيّة ولا حرج على الأعرج.

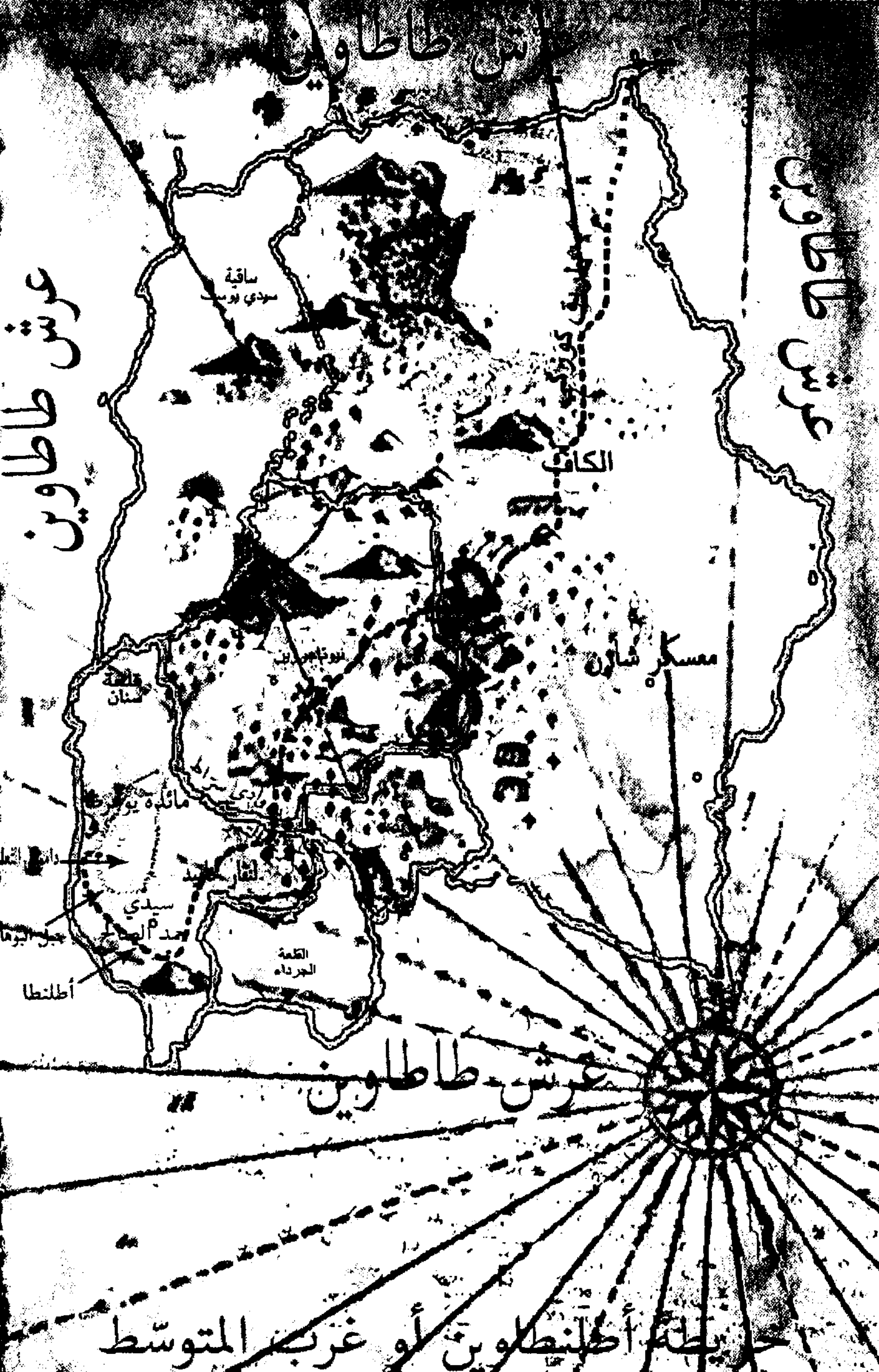
القلم لا يساوِم. القلم يقاوم. يرغمك على قراءة ما لا يقرأ، سماع ما لا يسمع، فعل ما لا يفعل. يسافر إلى الكفر البعيد المنسي، المحكوم بالجوع. من البؤس يستخرج الكفاح السعيد. حيّ على الكلام. «أيّها المواطنون مزيدا من الجهد إذا أردتم أن تكونوا جمهوريين فعلا»[1].

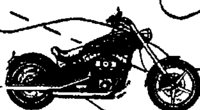
القلم يُحيي من يريد ويُميت من يريد. سرك أبطاله شحّاذ يسرق النهار من عين الذّي يكنز الذّهب والفضّة، وليّ صالح

---

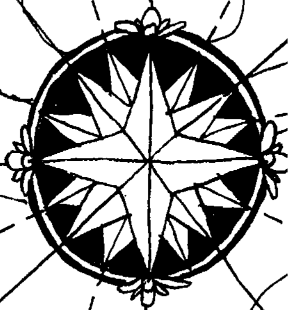
* ياسوناري كواباتا (1899 – 1972)، روائي ياباني. كتب أكثر من مئة وأربعين قصة قصيرة. قارئ كبير لفيودور دوستويفسكي.

1 عن الكاتب الفرنسي ماركيز دي صاد (1814 – 1970). من روّاد التحرّر، سُجن في فترات متقطعة لنحو 32 عاما من حياته، بينها 10 سنوات في الباستيل، كما تمّ احتجازه في مصحّة للأمراض العقليّة. أهمّ أعماله، 120 يوما في سادوم وتعاسة الفضيلة وجرائم الحب.


عرش طاطوين
عرش طاطوين
عرش طاطوين
ساقية
سيدي يوسف
الكاف
مسكر شارون
قلعة
سنان
مائدة يوغرطة
سيدي
أحمد الصالح
القلعة
الجرداء
أطلنطا
عرش طاطوين
خريطة أطلنطوين أو غرب المتوسّط




1 Vieux village
9 Poste avancé
11 Camp



يشهد بأنّ الشهداء أحياء عند ربهّم يرزقون، ويذكر الربّ «ڤود باي طاطاوين مرحبا أطلنطس»، كاريكاتوريست كسّر قلمه على لام المهبول وحذف ما حذف من أنفه وشفتيه ليستخرج عين تبول (العين أذكى من العقل). زير تزوّج من نعامة تبيض له صغارا وشاةً، كتاب يلاحقه ضفدع آشوريّ، ثعلب يجمّع الضّحك كأنّه يُجمّع طوابع البريد من أولي الأمر. نكت لذيذة، حادّة، تذبح عنق المستنصر بالصمت. حضرصمت تحترق في الماء.

القلم مرابط، رافق شلّة الخنازير، رفاق زاباطا. كان هناك يوم ممات «ادوارد سعيد»*. هبّ للزنج في البصرة. أبحر في الزرقة مع الطّارق. ذهب إلى أمّ الكليل جبل الاسمنت والغبار الأشخم. تكشّف على جرح الحسين في كربلاء. رمى نَيْرُونْ بالحجارة والطماطم في مكثر. كان في حضرة الفسفاط في جبل الحلّوف. مات يحيى، مات إدريس، مات البشير، مات يونس، الكتاب يُميت لا يموت. يحيا يحيى.

- عندما تلتهم ما في القرطاس وتتطعّم ملح حبره تنتهي راوِيا. تُعطي حُكمك دون التفطّن والإلمام بالصنعة. لا تسأل كيف

* إدوارد سعيد (1935 – 2003)، مقاوم فلسطيني. أهمّ أعماله، الاستشراق ومسألة فلسطين والعالم والنص والناقد والقومية والاستعمار والأدب وعن النموذج الأخير الموسيقى والأدب ضد التيار وخارج المكان.

يسوق القلم اللّفظ ويرصّع المكتوب. قُمْ للأيادي التّي تتكلّم. الكاتب نجّار.

حتّى تُجيد صنع لوحة ماء، لا بدّ أن يكون لك مخزن وفير من الشراب، خبّأت فيه ما حَصَدْتَهُ وجَمَّعَتْهُ ذاكرة صيف النّحل لشتاء النّمل، صندوق مكتنز بالعبارات والنظرات والكلمات والآيات والصُّور والمشاهد، قفص حَفِظَ زقزقة الصدر. دون وفرة الماء يعطش اللّسان. اللّسان مصنع، مفاتيحه البلوريّة لفظ وضّاح.

اللّغة تمكّنك من التفصيل والترقيع والحذف والتشطيب والتثقيف. كُن حدّادا مع الفولاذ، حمّره، عوّجه، طبّقه واِصنع منه ما تشاء. ثم اِرضَ على الصنيع. قال تعالى: «... إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ» (طه 71).

الكتاب رياضة جسديّة، قفّازه اللّغة وأحيانا هو لَعِبٌ رقعته وقطعه اللّغة. الكتاب اشتغال على اللّغة بمعول اللّغة. اللّغة الصرفة، لا شيء خارجها، لا شيء يضاف إليها. لغة مجرّدة، آيات ابن عربي المكّية، ذاك الكائن التائه، الصارخ، السّاخط، السرمديّ، وحيدا في الجوّ. اللّغة الحافية.

هنا، الخلّاق، نجّار الأدب الكبير والأدب الصغير، له الصبر والمثابرة. لا يمرّ عبد اللّه بن المقفّع من باب إلى باب، إلاّ بعد أن

يسوّيه ويكسوه ويبنيه من سَاسُو لْرَاسُو، من القاع إلى السقف، راميا أعمدته ومدارجه وإلاّ سقط في شرك حضرصمت. لا يفكّ عن صلصلته حتّى تظهر ملامح الدّار ويُدْخِلَ عليه الماء والهواء والشمس القبليّة.

القلم المتهاون، الكسول، البخيل، المتلاعب، الغشّاش، المتطفّل، فاقد سمسم الماء، سرعان ما تجرّه حروف الجرّ إلى الحذلقة والتزييف و«الريتوريقا»، فينزلق يسفسط ويحلّل ليخطب فينا. أين الأدب أيّها السائل؟ «عطشان يا صبايا دلّوني ع السبيل»[1].

القلم والرّيف لا يتقابلان. الكتاب الكتاب، الأثر الأثير، يخرج من كرش المدن النّهمة، الجشعة، آكلة أضرحتها. أصدقاؤه من شتّى الربوع، عَدَا طاطاوين، عرش البهتان.

قليلة هي الأيادي التّي تمكّنت من تحويل السؤال إلى جسدٍ حيٍّ، نلمسه ونراه ونسمعه. ما أروع لوبيرا كات سو*. ليس كلّ من هبَّ ودبَّ اِسمه المقفّع. من المقفّع يا كوزكي؟ منكوس الرّأس من شدّة حُمَّى الحرف، مكتشف أطلنطس.

اللّسان قلم الأعياد لا المعتاد. القلم يشتقّ علقه من برج

---

1 صلاح جاهين (1930 – 1986)، شاعر ورسّام كاريكاتير وممثل مصري.

* لوبيرا كات سو، كوميديا موسيقية لـ برلوت بريشت وكورت وايل.

بابلوين. تحويل وغربلة وصياغة للكلام، كذاك الذّي ينكبّ على كسر الحَجر لاستخراج الجوهر من الجوهرة.

اليد التّي تتكلّم تمتلك لغة فريدة، لغة الأعياد والجنازات، موت وفرح، زغردة ونديب. لغة مهيكلة، جدليّة، تتمغّط وتتلوّى كغَيْلَم بلا صدفة، تتنفّس وتعرق من جلد من سوّاها، لها مذاقه ومعناه.

الكتاب قويّ، محبوك، صلب، واقف، يجري، جذّاب، له ناموس وجلال وكبرياء. باللّه عليك لا تزده كبرياء على كبرياء، الكتاب أصله كبرياء، تواضعْ يا كَوَزَكِي. سيّدي وسيّد القوم، فتى الكتاب، يحثّك حين تتكلّم يداك على الدقّة والخفّة والاقتضاب. «القلم ريشة، ثقله ثقل الرّيشة، خفّته خفّة الرّيشة، حجمه حجم الرّيشة»[1]. عِنْدَكَ الرِّيشَهْ يَا كَوَزَكِي؟ الريشة في إسرائها ومعراجها، تُلامس قوس قزح لتتلوّن بألوان عصفور الجنّة. حين تتكلّم الأيادي، تضع العالم جانبا وتنشغل بتكوير أطلنطس.

ربّ القلم تكبّر : «أنا رب القوافي وترب الندى / وسمام العدى وغيظ الحسودِ / أنا في أمّة تداركها اللّه / غريب كصالح في ثمودِ»[2]. من يزايد؟

---

1 مقاومة الأخطبوط للكاتب الإيطالي إيتاليو كالفينو (1923 – 1985). أهمّ أعماله، مدن لا مرئية والفطر في المدينة.
2 من قصيدة كم قتيل كما قتلت شهيد لـ أبي الطيب المتنبي.

الكتاب عمران. بشر يتحرّكون في كل الاتّجاهات، مكبّلون بالتاريخ، بالأيّام، بالسّاعات، بالطقس. تواريخ ميلاد أناسك وحياتهم وموتهم مضمونة في يومٍ توقّفَ عن الدوران، جانفي القدّيس، كأكتوبر الأحمر، مرادفه في الحرس الأبيض*. على هذه الخريطة وفي هذا التاريخ تحرّك «كوبازوف» و«غيلان» و«مكثاريس» و«راسكولينكوف». ألبِسهم زينة حياة الدنيا، قضاء حاجاتهم، قليل من العيش، أكل وشرب، كثير من السياسة، شواغل العباد المثقّلة بثقل الدين. لا داعي للتخيّل يا كَوَزَكِي، فهِمنَاك، أنت في طاطاوين، إيمان وتعصّب وكفر وزندقة وارتداد، الخرافة ملاذهم والصعلكة كتابهم. محاكم تفتيش زمن التلفاز والهاتف الجوّال والأنترنات.

لِعَازِر يعود إلينا مشوّهًا. «فرانكشتاين»، بلغة سام. الرسالة بثوب أمريكي، دْجِينْ ونَايْك. الرعب حاصل لا محالة، تمتّع. مرحى طاطاوين.

كَوَزَكِي يطوي المسافة تلو المسافة، عجلاته تُزغرد على حُصْحَاصِ الثّنيّة المؤدّية توّا إلى طاجروين، البلدة الزّفت، معهد يفتحها ومستشفى يودّعها وعلى شارع القناديل لا قنديل، شارع يمتدّ على كيلومتر، سطر لا خدش ولا اعوجاج

* الحرس الأبيض، لـ ميخائيل بولغاكوف.

فيه، مهذّب، مطيع، تلميذ نجيب في المقعد الأوّل قضّى عطلة الصّيف بعين دراهم وحفظ عن ظهر قلب: «يا وردتي ما أحسنك»، «قد كان عندي بُلْبُلٌ، بُلْبُلٌ».

البنايات والأشجار والماء والطيور من طوب أصفر. البلدة صفراء كسجن الألكتراز في فيلم مكسيكي. فلّاح يلوّك مضغة تبغ أصفر ويتنخّم بلغما أصفر. أصفر على أصفر. الأهالي يجلسون القرفصاء، على رؤوسهم مظلّات من السّعف الأصفر، وجوههم صفر، أياديهم صفراء، شعرهم أصفر، راشقين أعينهم في الوطاء الأصفر، مشمّرين على جلابيبهم الصفر، يتغوّطون اصفر. عفوا للأشقر.

قضّيت فيها سبع سنوات صفراء طُلِّسَت من الذّاكرة، لا طعم، لا مشهد، لا مغامرات، من الدّار إلى المعهد، من المعهد إلى الدّار، لا خليل ولا خليلة. قيّم عام يتحرّش بالتلميذات القرويّات وأساتذة نسوا جدول الضّرب. في الغداء والعشاء لُوبْيَهْ. مرق الفاصوليا. الذّاكرة لا تحفظ الأصفر. «فَأَمَّا الزَّبَد فَيَذْهَب جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنْفَع النَّاس فَيَمْكُث فِي الْأَرْض» (الرعد 17).

طاجروين، محطّة بنزين عجيل، تضخّ الغبار. فيلم مقهى بغداد في صحراء الأريزونا. عام على عام، ينزل عليها حريف

ضربه البوصفّير أو التهاب الكبد. علب الشّاميّة والحلقوم صدئت وأنبتت صوفا أصفر.

في طريقي إلى طاجروين عصرني هاجس مُلحّ، ليتني أحذف من المسافة بقعة طاجروين، أطلّسُهَا لأجد نفسي مباشرة في لنقار محاميد. مستحيل، لا بدّ من المرور عليها. الهلواس ألهاني عن المناظر والمشاهد التّي تجري عكس كَوَزَكِي المنطلق كعابر الصّوت. فْرُووووووومْ.

فاتني الفيلم.

في الخلاء، على أرض أولاد شارن زرعت بطّاريّات أرض أرض وصواريخ عابرة للقارّات وأسلحة دمار أخرى، مصفّحات ومدرّعات ودبّابات ومدافع تدرس الزّرع اليابس وغوّاصات تغوص في عمق الأرض وذخائر مطمورة في المغازة، مستشفيات متنقّلة، جسور معلّقة، خرائط مفروشة يحرّك فوقها الدّاهية تْسَانْ تْسُو، فنّان الحرب، القطع المنمنمة، على الأنهار وفوق الهضاب وبين الخنقات، مستعملا تكتيك التسلّل وراء خطوط أطلانطاوين. كتائب عبّاس بن فرناس أغلقت المجال الجوي والطرق الطّيارة. الحثّ في كل ركن. «زرياب» يقود أركسترا «البولشوي». السيمفونية الخامسة* يقشعّر لها النهار. أبو

* السنيمفونية الخامسة، لـ لودفيج فان بيتهوفن.

الطيّب المتنبّي على جواده يشحذ الهِمَمْ: «عَلى قَدْرِ أَهْلِ العَزْم تأتي العَزائِمُ / وَتأتي علَى قَدْرِ الكِرام المَكارمُ... بَنَاهَا فأعْلى وَالقَنَا يَقْرَعُ القَنَا / وَمَوْجُ المَنَايَا حَوْلَها مُتَلاطِمُ / وَكانَ بهَا مثْلُ الجُنُونِ فأصْبَحَتْ / وَمِنْ جُثَثِ القَتْلى عَلَيْها تَمائِمُ».

دبيب ودواليب وصفّارات تتعجّل الخطر. آلاف الهكتارات سُيّجت بأسلاك الكهرباء، تمركزت داخلها غرف العمليّات بفجّ التمر. أعلام طاطاوين مرفوعة على الخيام. مغاوير الصّين ومشاة الهند الشعبيّة وفرسان القوزاق وخيّالة أولاد عيّار الأشاوس وجيش تحرير الجزائر والبشمركه. المفاوضات حثيثة بين وحوش أدغال الأمازون وأشجار «البْلَنْزْ» المعمّرة وثلج قطب الشمال والمحيطات، من أجل الالتحاق بالتحالف وإبرام معاهدة النّصرة بلا تحفّظ. دخول الطير والنّحل والنّمل سيكون بمثابة دخول خالد إلى الدين الحنيف. الورقة الخفيّة التي ستغيّر ميزان القوى. نحتاج إلى الزّلزال، إلى البركان، نحتاج حتّى لأثر الفراشة، للبخت، للربّ، للسحر إن لزم الأمر. المعركة غير محسومة.

كم من حرب ربحت بالثّلج وشدو النّاي والتفطّن لكعب آخيل. سَنَلْجَأُ إلى الاحتياط. طاطاوين سقطت بين أيديهم، صفاقس استسلمت دون كفاح، سوسة تحترق، بنزرت تجلي

النساء والأطفال، الدّخان الأبيض استعمر الكاف، جزر قرقنة ابتلعتها الدّوامة. طاطاوين في خطر. مصير غرب المتوسّط سيتحدّد الآن هنا*.

أطباق فضائيّة رابضة في الطّلق وأقمار تنصّت وتجسسّ تدور في الفلك. الاستنفار الشّامل في انتظار يوم السؤال. مناورات تجمع الأسلحة الثلاث، برّا وبحرا وجوّا. «الدّراكار»، سفن «الفايكينغ» ترسوا على السّعير. إنزال «كومندوس» الضّفادع على ضفّة وادي سرّاط مُبرمج.

أكبر تحالف في الدّنيا تحت إمرة «الكُومُنْدَانْ» محمّد علي. حرب الكواكب على أرض إفريقيّة، مهد الفراشيش، عشيرة أعطت للقارّة البيضاء اسم إفريقيا. «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّه وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ» (الأنفال 60). دقّت السّاعة، الهجوم تقرّر، بالأمس قبل الغد، كالخيل فاقد الصّبر، على خطّ المركض، يصهل ويضرب بحوافره مطالبا بحق العَدْوِ. سيناء، قادمون من طاطاوين.

العبور.

دخلتُ طاجروين، غشاء شفّاف كقرنيّة العين، فقاعة صابون

* الآن هنا (أو شرق المتوسط مرّة أخرى)، رواية لـعبد الرحمن المنيف (1933 – 2004). أهمّ أعماله، مدن الملح وأرض السواد وسيرة مدينة.

تعزلها عن الْخُمَاضَهْ. وجدت نفسي في المنستير، البلدة القبيحة التي زيّنها ابنها الحبيب طاطاوين، مطارات ومستشفيات جامعيّة وفنادق سبع نجوم ومراسي اليخت ودرّاجات التزلّج على الماء. ماهذا لماذا؟ قلت عن طاجروين المنستير، لَكنّ «وَاشْ جَابْ وَاشْ جَابْ».

طاجروين الذي دخلته من قبّة الهواء، «طاجروين» الحديث، «نيويورك» الصّغيرة، الذي بناه قراصنة «هولندا» ورعاة بقر «اسكتلندا» وعصابات «هامبورغ» و«لندرا». طاجروين العجاج ورياح الخمّاسين أضحى «كرطاج» حضر صمت الزّمان، عاصمة «الفَارْوِسْتْ»، غرب البرّبرّية. طوابق من الطرق السّيّارة تُنفّس قلب المدينة، تفسح المجال لأحزمة في شكل سلّوم. على طول الطّريق، الشّارع الخامس، أبراج مزدوجة وناطحات سحاب ومحلّات ساعات «الرّولكس» ونظّارات «الرّاي بان» وعطور «ديور» وأحذية جلد التمساح ومعارض سيّارات «البوغاتي» وفساتين «هرماس» ومطاعم لحم فرس النّهر ومرق خصية طير الحبارة ورأس عفريت «لُوكْ نَسْ». أرصفة خلفيّة لبيع الكحول النّادرة ومخدّرات «بعلبك». ماخورات اللحوم الطّريّة، شركسيّة ودمشقيّة واسكندنافيّة وعلوج زنجبار وشجرة الدّر. كازينوهات تتنقل على بساطها الأخضر أرزاق وأموال طائلة،

رؤوس إبل وبقر، في لمح البصر. كل شيء يُباع تحت الطّاولة بالمكشوف، السلاح والبشر والممنوع والمُحرّم. أحياء أولاد المولّهي والجبابليّه سُمّيت بأسماء الجاليات والأقليّات المهاجرة والبِدُونْ[1]، صقلّية الصّغيرة، «صوماليلاند»، «تشاينا تاون»، تحاذيها ضواحي المنبوذين، دلهي وبوغاتا، حومة الجنبري وحومة عشرة ديسمبر وحفرة قرّيش وشبرا وشطرانة وبوعرادة ونبّر الحفْيَانَهْ.

«طاجروين» لا يرقد ولا يترك من يرقد. غناء وسُكر وعربدة في الطريق العام واشتباك وملاحقات وسرقة البنوك ومحلّات المجوهرات في وضح النّهار. الصفقات وعقود القتل تُبرم على حافة النهّج. المسدّسات ملقيّة في السّوق، رُوبَافِيكِيا، بُو بْلَاشْ يَا قْتَالَّهْ. تزوير العملة والوثائق في الأكشاك وشبابيك التذاكر. كتاب الحيل والرّباء مفتوح على مصراعيه. شطر العمران لواط وسحاق ونكاح البهائم والموتى والرّضع وزنى المحارم في الأسكندريّة. الفاحشة.

«كليوباترا، أيُّ حلمٍ من لياليكِ الحسانِ / طاف بالموجِ فغنّى وتغنّى الشاطئانِ / وهفا كلُّ فؤادٍ وشدا كلُّ لسانِ»*.

1 الذين لا يملكون أوراق إثبات هويّة

* كليوبترا، أغنية لمحمد عبد الوهاب، كلمات علي محمود طه.

الجاهليّة في المضارع. ما كسب يمينك وما ورّثه إيّاك أبوك الذّي أهلكه الحرث في رُبع النّساء الخالي.

معلوم أن تبيع ظلّك لعزازيل وتشتري ذمّة الجنّ، المهمّ أن تُطيل عمرك حتّى تصيب الفهم. الفهم أن لا تفهم. لا مانع أن تعود إلى «خستخانات» الغجر، أحبار السّحر الأسود و«كُرَةِ الكريستال».

قُلْتَ: «هل تؤمن يا كَوزَكِي؟» أقول وقد ناحت بقربي حمامة: «أنا أؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه».

علّقت على بردعتك حُوتّة وخُمْسَة وقَرْنْ غْزَالْ وكتبت على لوحك لأتجنب شرّ العين والحسد: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ» (الفلق).

لكلّ نفس ذائقة العين، حَشِيشَهْ ومسحوق وتميمة وأدعية الحرز والتحصين، «الْعَيْنُ حَقٌّ تُدْخِلُ الْجَمَلَ الْقِدْرَ، وَالرَّجُلَ الْقَبْرَ» (حديث شريف). نكرتك زهرهْ وهجرت فراشك؟ عليك بذكر الأفعوان، تشرّحه وتملّحه بملح مناجم ساحل العاج وتمزجه بمنيّ القرش وتغلّفه لِسَنَة بورق الحلفاء وتردمه في قبر عذراء قرأت عليها ما تيسّر من زبور الخوارج عن مُلك

«زُبْرَدِشْتْ»، الجنّ الأرقط، وتذيب الخلطة في شراب عنب «فرمباليا» وتُشرِبها إيّاه خلسة ليلة كسوف كوكب الزّهرة، تأتيك مولاتك زهرهْ، سكرانا، مبلولا. يا ناعما.

كرنفال من الأجناس وخليط من الأرطال، لغة الطير والخنفس والمخلوقات الخفيّة. بابلوين.

من كل النّواحي، من الفوق والتحت، من اليمين والشمال، يحجّون إلى نْيُوطاجروين، رحلة الشتاء والصّيف، عكاظ مترامي الأطراف، سوق الأربعاء كل يوم حتّى الثلاثاء: «في اللاذقية ضجة ما بين أحمد والمسيح / هذا بناقوس يدق وذا بمئذنة يصيح / كل يعظم دينه يا ليت شعري ما الصحيح»[1].

عصابات الخنازير، حماة الموت، تُؤَمِّنُ المعابر وتحفظ الأمن في المفترقات وأزقّة الظلام. الفساد سيّد الموقف. ظروف الدّينار تفتح لك طريقا في البحر الميّت وتهدّئ من روع الحرس الأبيض. الرّاشي والمرتشي على خطّ التّماس.

على طاولات صالون حانة «ماطاماطا»، نسخة من حانة طاطا (هي هي، طاطاوين أو مطماطا لم نخرج من شطّ الجريد والطاء المثّنى، ط[2])، أشكال، ألوان، دمى متحرّكة فرّت من وَالْتْ

1 من لزوميات أبو العلاء المعرّي (973 – 1057). أهمّ أعماله، رسالة الغفران وديوان سقط الزند.

دِيزْني*، جحش يهرّب علب دخان «المارلبورو» و«الوسكي» المذرّح وكلب سوق مترهّل، قوّاد، يشتغل بالقهرمانات وقطط التِّينيسِي فوق سطح اللّهيب** وجمهرة من العملاء والجواسيس والعيون يسترقون السّمع ويكدّسون التقارير وخرطوم يبيع السّلاح ويبتاع العبيد البيض ويتاجر بفسيفساء سبيطلة ويقايض الأشباح والأرواح ويقتسم الرّبح مع الجنّ والعائدين من الماوراء والقادمين من بيت الأذى. يبيع روحا أو روحين بذرّة من «اليورنيوم»، يأكل ويشرب ويحجز غرفة في نزل «الرّفَايِيل» ويسدّد الحساب بتاج أبيض ثلج اقتطعه من جبل الكامرون. خُيّل لي أنّي شاهدت أمراء الفقراء، أبا ذرّ الغفّاري وعمّار بن ياسر وفتيانهم الصعاليك، تأبّط شرّا والشنفرة، «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ» (المدّثر 50)، سالّين سيوفهم الضالعة في السرّاق الأثرياء. «نحوهم، حاسبوهم، الكذّابين، السّراقين، القتّالين»***.

كُبّانِيّة الهند، شاي وتبغ وتوابل وزعفران وقصب السّكري وبُنّ القهوة والقاط من شجيرات «أسمرة» ومسحوق الكحل

* وَالْتْ دِيزْني، شركة أمريكية لإنتاج وتوزيع أفلام الصور المتحرّكة.

** قطّة فوق سطح اللهيب، فيلم للسينيمائي الأمريكي ريتشارد بروكس، عن مسرحية لـ تينيسي وليامز.

*** للمغنّي الجزائري رشيد طه. اشتهر بمزج أغاني الرّوك مع موسيقى الرّاي. أهمّ أغانيه، يا المنفي وبارباس ويا رايح وكلمة.

من جبل بولحناش والسواك الحار واللُّبان الذّكر من «تيزي وزو» وعجين الطفل من «سيبيريا» وحرير الدّود وقرن الكركدن ولسان العصفور وقلب النّمر ودم البشر وجلد الدّب ووصفة طهو أكلة «المعكرونة». هنا، «ماركو بولو» يبيع أمّه وابنته وظهره «لقوبلاي خان». العرض والأرض في السلّة. الكلى والكبد والمقلتان أجزاء تباع بالتفصيل، سوق الحفصيّة للأعضاء. الخيانة والغدر واللّؤم مسعّر بعيار الفسفاط والديوث علامة مسجّلة محفوظة في دفاتر التّأليف. السّماء تشتهي السّماء والسلحفاة تسبق النسر «والحوت عطشان في الماء»[1] وبوبكا* يقفز فوق عشّ الوقواق** ليصفع بكفّ يده وجه النكبة.

ماذا دهاكَ طاجروين؟ نعمة أم لعنة؟ اللّعمة. هذا حال طاجروين، طور العنقاء. من أي شبّاك جاءتكَ ريح اللّعمة؟ الجغرافيا وليّ نعمته، أتت على الحدود وحطّت. طاجروين، إبرة البركار في الحلقة، إليه تجري الأضداد وتتزوّج الأرقام في مصبّها فتُسيل الطمي لينبُت زرع الرفاهية والكثرة. تحلو المغامرة والمجازفة والهرولة نحو مناجم الحديد والأرض الطيّبة.

---

1 روبندرونات طاغور، شاعر بنغالي صوفي.

* سرغاي بوبكا (1980 – 2000)، بطل عالمي سوفياتي، صاحب أرقام قياسية في القفز بالزانة.

** الطيران فوق عش الوقواق، فيلم للسينيمائي التشيكي ميلوش فورمان.

«كاليفورنيا» تطلّ على سلسلة جبال الأطلس. أطلنطس.

على الحدود، ملاذ الخنثوي الذّي يلقّح نفسه بنفسه، أنثى في ذكر، الرقم الأولي، الموجب والسالب ($\pm\infty$)، الواحد المزدوج الـمُكْتَفِي الملهوف، ط × ط، لا تثبت على منظر أو قيمة أو سُنّة. الضحى تبدّد عصرا، لا شيء مكث كما تَبينّ. يرقة، شرنقة، فراشة، تُراب فَدُودَة. دوران البتَّة. حضرصمت، دورة الحياة، لا تتوقّف عند الألفة والعِشرة. لا حدود على الحدود، لوح موسى (لا تقتل، لا تسرق، لا تَزْنَ، لا تشهد شهادة زور، لا تكفر بنعمة ربّك) تكسّرت. على الحدود، في غرب المتوسط، تُعاد صياغة الشروق لتشرق الشمس من المغرب.

في الممرّ الطليق يعبر المارق واللّقيط والكشّاف والعاص والهارب والمهرّب وقاطع الطريق والمكروب والمكلوب والضّال. على الحدود خطر وإغراء وترغيب وإهاجة. العابرون المخدوعون يتسلّلون كطيفٍ بين الضفّة الغربية ومعبر «ساقية سيدي يوسف» عبر داموس الجبل الأسود مصوّرين على جلدهم خريطة جزيرة الكنز، «أطلنطس».

للطلائع الجغرافيا. ولكم التّاريخ. الجغرافيا تجوال والتّاريخ حديد بِزْلَاف. السطر انضباط والخطّ تمرّد.

إِلْ بَاسُو، أريزونا، على حدود المكسيك، ألّف «كورماك»

المعبر الواسع*، خلاء عمّره الوهم والغموض والسرّ والكائنات الهجينة. ترى بَأس البريّة يصطدم بقسوة الجارح. على الحدود، يقتسم قاطع الحدّ مع الشامان** غليون الهدنة. اِحذفْ إِلْ بَاسُو وثبّت مكانها طاجروين، ستقرأ كتاب الحدود والتفصيل والهمزة اللّمزة. كورماك الكافي، عبد الرحمان التكساسي. «الأُمَّهْ حَارِتْ / الأَسْعَارْ فِي يُومِينْ صَعْدِتْ طَارِتْ / التُّجَارْ عْلِينَا يَا رْفِيقِي جَارِتْ / بَيَّاعْ الخُضْرَهْ عَانِدْ الجَزَّارَهْ / عْلَى بْعَضْهَا لَعْبَادْ رَاهِي غَارِتْ / سْبَبَ الهَمّْ حُرِّيةْ التَّجَارَهْ»[1].

في المعبر الواسع ذئب ذو لِبدة شقراء، عضّ المنداف ساقه، دمى وعوى فهرعت إليه الذئبة وأكلت ساقه المشدودة وخلّصته. قانون أهل البريّة على مغرب المتوسّط. يأتي الأذى، حِدُّوه.

أيّام العزّ، أحبتني فاتنة برازيليّة، دعتني للاحتفال بيوم مولدي في كرنفال ريو دي جانيرو، أجّرت لي شقّة مفروشة على كورنيش كوباكابانا، استلقيتُ على شاطئ الأطلنطي، مشدوها إلى الكَوَاعِبَ الكَرْيُوكَاتْ، كما ولدتهنّ أمهاتهنّ، لولا

* المعبر الواسع، رواية لـ كورماك ماكارتي.
** الشامان، وسيط بين الإنسان والأرواح. الشامانيّة موجودة في سايبيريا وآسيا الوسطى اليابان والأمركيتين والهند الصينية وكوريا والشمال الغربي التونسي.
1 من قصيدة هي مزمّره وزادولها زُمّاره للشاعر المقاوم عبد الرحمان الكافي.

السْترِينْغْ المشدود إلى خصورهنّ. الغزال يتسابق أمامي، لم أتفحّص جنسه، ذكر أو ذَكْرَهْ يَلْعِبْهَا. بَشِمْتْ.

أسبوع في الكرنفال، أنهكتُ حزامي في الرقص وحقن الهروين. العرش بلا طاطا. أفقتُ يوم الأحد أُهاتف «عمّ علي» البقّال وشاكر الحلاّق وفضّة المعينة المنزليّة والخبّاز ورشيدة نسيبتي العزيزة. ضاق بي نهر جانفي، «ريو دي جانيرو». لا يلائمني. العودة توّا توّا. قال «تاركوفسكي» لِمُنْقِذِهْ : «مالك تخرجني من مستنقع الخراء، هنا أسكن». جانفي الطاء أولى بي. ألّحوا عليّ، فرشوا لي الأرض حريــرا، كِيكِنْتْ كِ العَيّارِي، حَرِنْتْ.

لا تلحّ.

طاجروين يودّعكم. «أحنّ إلى خبز أمّي وقهوة أمّي»[1]. كِسْرَةْ مهريّهْ تناديني. الرّحيل يطبطب، لا توصدوا منفذ الطاء المثنّى. كَوَزَكِي، انطلق. إلى أين؟ طبعا «سيدي حمد الصالح».

استلفت جواز سفر من خنزير له نفس مضمون ولادتي وملامحي، لون العين كستنائي وطول القامة متر وستّ وسبعون سنتمترا، زوّرت عليه ختم شرطة الحدود وتأشيرة ليوم واحد غير قابل للتجديد.

---

1 من قصيدة إلى أمي لمحمود درويش.

طلع كَوَزَكِي من فقاعة طاجروين، متسلّلا كالشفق، تاركا وراءه سحابة دخانه المنبعثة من جعبته.

وأنت تجوب غرب المتوسط، يستدير المقود تجاه اليسار فَتُفَاجَأُ بقطار يشقّ الطريق، «كينغ كونغ» على ظهره.

محطّة لنڨار محاميد، سرك الإلياذة* وقصص سندباد الواق واق. دقائق معدودات ونصلُ إلى «سيدي حمد الصالح»، مفترق توأم الطاء، طاء على طاء، ط / ط = (∞). هل الطاء صفر؟

كْلاَپْ، جِنِيرِيكْ. أينما تشبّ، مُقبلا مُدبرا، «أطلانطاوين» تتكلّم.

مائدة «يوغرطا»، نَـجْدُ صخرة مقطوعة عن الأطلس، نيزك سقط من عطارد، تحكي لك عن يوغرطا، سيّد الطائين. هبّ الكركدن على جحافل «روما» وكَبَا. «يوغرطا»، جدّي المدفون في الشمّاء، علّق وصيّة في عنق التوأم، المتوسّل والمتسوّل: «إذا نزل الإنسان على سطح القمر، دقّوا على قبري».

«سنان باشا» قدم من الباب العالي، بايزيد، ودخل مرقد غيلان بَنَى القلعة على أرض «أولاد بوغالم» (غالم أحبُّ الإخوة إلى

* الإلياذة، ملحمة شعرية لـ هوميروس.

زُغلام، بعد عيّار) سمّى المرتفع باسمه، «قلعة سنان»، ومضى يطرد الأسبان من كَرَّاكِهْ حلق الوادي.

«سيدي علي بن غذاهم» نزل من جبل «بولحناش»، يؤلّب العروش على الإتاوة ومحلّة المملوك «زرّوق» ويؤلّف بينهم في معسكر «فجّ التمر».

دون قصد، تُحرّك حجرا، تَشتَكيك دابّة شاركت في الرّغى والوغى إلى «سيدي الميزوني». تتّكئ على شجرة الخرّوب ترجمك بثمارها وتنهرك: «قم أيّها السائل واضرب معي إن كنت أخي».

التراب الذي تطوف به، يا كَوَزَكِي، يضخّ دم الحكواتي. غالب أو مغلوب، في كلى الحالتين تظفر بالأوديسة*، تحكيها لذي الذقن الأزرق**، «شهريار» المعظّم، يتسلّى وينام على فضّ البكارة.

بالله عليك يا كَوَزَكِي أوصِلني إلى ضريح يوغرطا لـ «أُخبرَهُ بمَا فَعَلَ المَشيبُ»[1].

نزلتُ على ضريح الجنرال. تحيّة الجنديّ للقائد، الطاء المفدّى. غسلتُ بلاطة الرخام. تضرّعت إليه تعالى وقرأت ما تيسّر من

* الأوديسة، ملحمة شعرية لـ هوميروس.
** الذقن الأزرق، حكاية للكاتب الفرنسي شارل بيرو.
1 من قصيدة بكيْتُ على الشّبابِ بدمعِ عيني لـ أبي العتاهية.

سورة المعارج، أحبُّ القرآن إلى صدري: «تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» (المعارج 4). سلّمت على ترابه يمينا ويسارا. بشّرته: «دَرُوهَا يا جنرال. الأحد، 27 جويلية 1969، صعد أبولو 11 إلى القمر ومشى «أرمسترونغ» على ضفائره الفضيّة».

بكت عيني: «كيف للفأس أن تقتلع الخرّوب وتُشحّ الغدير وتَلْطَخ الدبّ المصارع؟ متى تبعث الأرض والماء والنّار والصدفة يوغرطا؟ الرحم عقيم، لا يضنى». للسّجن دعاء ما بعده دعاء: «يَرْحِمْ الأُمْ إِلِيّ ضْنَاتِكْ».

رجعت على أعقابي. أدركني الزّحام. موكب لا تعرف أوّله من آخره. على طول الطريق الفاصلة بين لنقار و«سيدي حمد الصالح»، تسير في وطاء الزّغالمه، رافعين السّلام في انضباط. لا تعرف هل هي جنازة أو زَرْدِةْ سيدي حمد الصالح. قافلة الفجع في الفلّوجة أو وقفة يوم عرفات؟ موسم الجراد أو فصل الخطاف؟ أَهِي اللّعمة أصابت سيدي حمد الصالح؟

أعلى المائدة، في زيّ الفَلاَّقْ، يعسّ فرسان الزّغالمه، آباتشي* البربريّة. رَبّي زَيِّنْ السِّمَاءْ بِ النْجُومْ والأَرْضْ بِ الزّغالمه.

* آباتشي، قبائل الهنود الحمر، السكّان الأصليين لأمريكا.

الزُّغلامي من زَغْلَمَ يُزَغْلِمُ زَغْلَمَةً، من كان في صدره غيظ وحقد وضغينة وعزم على الثأر والبادئ أظلم. قتلتهم النَّعرة والنَّغرة. عَصَبُهم في البرّ، في القبر: «أُنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِـمًا أَوْ مَظْلُومًا». قيل إنّ هذا العرق أمازيغي، الرّجل الحرّ، شاوي ينطق بـ الشّلْحَةْ ويلبس البَرْنُوسْ ويأكل الكُسْكُوسْ ويمشي على الـمُوسْ ويلاحق المطاردات النفاثات الرُّومِيَّةْ، لـمّا تدخل في وطاء الطاء، بالحجارة والسباب: «يَاعِنْ بَابَاكْ لَعْوِرْ». سِترًا يقولون: «بْهَايِمْ الشّيحْ لَا تُوخِذْ مِنْهُمْ لا تَعْطِيهُمْ»، «زُغلامي في الصِيفْ وزْغِيلِيمِي في الشْتَاءْ». الفقير منهم يَدّخر الشّحم حتّى إذا خرج مرّغ به شفتيه ليقول النّاس: «زُغلامي وكَالْ اللْحَمْ». عزيز، يذبحُ لك بغلته لتُشيع ما جاد به الفقير. حاتم الطائي أَصْلُو الأَصِيلْ زُغلامي: «يقولون لي، أهلكت مالك، فاقتصد، وما كنتُ، لولا ما تقولونَ، سيّدا». الزُّغلاميه كارثة، تولد إمبراطورةً. لا تتزوّج من الطبقة الوسطى. تحبّ بنكا ووكالة أسفار و«أورسن وِلْسْ»* إن أمكن.

يُحكى أن زُغلام، العُرف الجدّ، قدم هاربا بعد مقتل أبيه الملك

* أورسن ويلس (1915 – 1985)، سينيمائي ومؤلف وممثل ومنتج أمريكي. عمل في مجال السينما والمسرح والتلفزيون والراديو. أهمّ أعماله، المواطن كين وعطيل ودون كيخوت.

زُغلوم من طنطاوين على النّيل، أين يسبح الطير ويطير السمك في جداريات پيكاسو. حلّ زُغلام على جوبا عظيم نوميديا، الذّي أعطاه الأمان وأرضا قرب بلاد العنب والعيون، طاجروين وتالة، ليبني طنطاوين صغيرة على ضفّة وادي سرّاط، قرب بئر لِمْدَيْنَهْ وعين فْكِيرِينَهْ، تحديدا على حافة مائدة «يوغرطا». يُشاع أن «زُغلام» اصطحب معه على ظهر سفينته، أهل الجنّ والأشباح والفنّانين وكهنة الفلك وكبار السحرة من مهندسين ومداوين ومؤلّفين ومنقبّين عن الماء ومؤرّخين وجغرافيّين وقطعان من الغرانيق الكبار وزوج من طير الفينيق وبيضة الرخّ والكأس المقدّسة ونار النفوذ وعرش طنطاوين وتاج زُغلوم من ماء، قلب طنطاوين النابض الذّي لا يعرف أحد أين عينه.

أسّس الهاربون من طنطاوين، مدينة يحلو فيها العيش، ابن الإنسان هو المعيار، طول البنايات على طوله، كل المرافق على ذمّته، في خدمته، تسهّل له الأيّام والسّاعات، «كثيرون يبحثون عن السعادة فيما هو أعلى من الإنسان، وآخرون فيما هو أوطى منه. لكنّ السعادة بطول قامة الإنسان»[1]، السّاحات مستديرة، مدارج ومسارح وحدائق زهر العبق وأنغام النّاي الحزين، الجار للجار. هنا الماء قبل الوطاء. الميم قبل الطاء. لا مانع من

1 كونفوشيوس، يلقّب بنبيّ الصين.

قدح طاطا وقتل بخيل سمرقند. الماء بلا سدود. البوليس نام وما صَحَا، «إذا رأيتم شرطيا نائما عن الصلاة فلا توقظوه لها فإنّه يقوم يؤذي الناس»[1]. الطنطاويون امتهنوا الهزل والتهكّم وسبّ الفخامة. في المدخل، على قوس النّصر، نُقشت قهقهة أُقتبست من حلّاق إشبيلية: «سِيدِي، اِيسَوِّدْ وِجْهِكْ».

لا ناظر ولا مناظر يعكّرون الجوّ. الماء والبلّور والخضرة بهجة وهرمونيا، مدينة ابن سينا. مقاهي للزهو واللّهو والدردشة والضّحك والترويح عن النّفس لربح الوقت. حقّ السّفر والمعرفة والسّكن. التنصيص على العِلاج والأجر العالي. شؤون المدينة وعلاقات الطنطاويّين يديرها دستور ببند واحد، رسم هندسي = شَلْطَتَيْنِ، ظَنّي بها تعني تُساوي، مساواة. قيل عنها ميم الماء، قلب طنطاوين النّابض الذي خبّأه زُغلام في العين لسنوات الحوت.

أكل الملح طنطاوين الصغيرة وألّف المؤلّفون أَلِفاً لها قبيل الطاء ولام النفي جنب النون لتكون أطلنطاوين. مات زُغلام وماتت معه الشلطتان، ميم الماء. إلى حدّ الساعة مازال الرحّالة والمغامرون والغوّاصون والسقّاؤون وحفّارة العيون يَشْقَوْنَ لاكتشاف أطلنطس وقلبها السّائل. كم من مصوّر صوّر ماء

1 سفيان الثوري، كبير المتزهدين.

أطلنطس مفاعلا نوويّا، حجارة من سجّيل، طيرًا أبابيل، صاعقة الأولمب، ماءً زقّوما، ضوء الطّارق، الكتاب وميم الماء.

نحو الفضاء وفوق البحر ونفق الأرض أتسوّل شربة ماء. لا ميم في الماء. أطلنطاوين تأبى العلن، مقفّعة، في انتظار المطر، إهديني يهديك. نسي الزّغالمه من أي ماء زُغلوا. سقطت أطلنطاوين في الوطاء وأُتلف ميم مائها وكُذّبت معجزتها وتلاشت طاءاها. إنّهم لا يتذكّرون.

الزّغالمه منعزلون، أحبّ جار إليهم كبعد السماء على الماء، عشرة كيلومترات، أكثر. يبنون زوايا الأحواش تحت جبل مغمور واعر حيث يُغرّد البوم ويَتسلطن حْنَشْ بُومُغْرِفْ، كُوبْرَا. في الطّبّة المحاذية لمأواهم يغرسون، كالألغام، أدغال الهِنْدِي العَزْرِي، هناك يستريحون ويُنبتون الأفيون ويكنزون سطوهم من اللِّويزْ والزُّمُرُّد ويدفنون جثث المَبْعُوجِين.

الموكب في حماية آخر الزّغالمه، الإخوة الكعباشي وعبد اللّه السحّار.

«عبد اللّه السحّار» لَبْرِقْ، ذو العينين الزرقاوين، نظرته تجمّد الماء، لم تطأ قدماه التراب، ملتصق إلى مهرته الصهباء. يولد الزُّغلامي في حجر حصان وعلى كتفه بندقيّة، كما تولدون أنتم في الجبن.

عبد اللّه السحّار آوى سيدي علي بن غذاهم على فجّ التمر، وسلّح أبناءه الخمسين وأبناء إخوته وعمومته وأخواله الألف. قال قبل أن ينزع عنه ماء الوجه: «أين أولاد عمومتي؟» سار بهم إلى قصر العرش بمنّوبة. علّقوا رؤوس المماليك، البشطبجي ودرغوث وبربروس وكلّ البَكوات والدّايات والخِديويات، في ذيول خيولهم، جرجروهم على نار تُصلى، عاثوا فيهم فسادا.

فرّ السحّار إلى الجزائر. عندما تتعكّر الأمور يلجأ الزُّغلامي إلى أبناء عمّه في تبسّة، يستريح ويأكل البُوتْشِيشْ. يتزوّج ويُنجب ويُخلِّف ليُعوّض ويروّح.

الكَعْبَاشِي بُو خْشَمْ، ذو الأنف السوداني، صيّاد الحمار الوحشي وعاشق فاطمة، كل ليلة، يُشعل النّار ويُطعم بصيده الأعمى واليتيم. «أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا» (حديث شريف). من فرط إشعال الفتيلة وطلق البارود، لُحس شاربه فلقّبوه بـ الأَصْلَعْ بُوشْنَبْ. غَيُورْ على بنات عمّه، لا يزوّجهنّ لغير مطهّر المدبّب.

في الثنيّة، عائدا من غابة بوشبكه إلى بُرجه في سيدي حمد الصالح، اعترضه معمّر مالطيّ، يتغنّى بلكنة الإفرنجيّ: «فَاطْمَهْ يَا فَاطْمَهْ مُونْ آمُورْ»، طرحه أرضا وسَلّ خنجره وفتح في دُبره جرحا وركبه. زُغلامي مْتَلّغْ، لا يفقه العربيّة.

ذاع صيته واشتهر بين النّاس، ناداه أحمد باي الذي كان يطمح إلى إنشاء قصر فرساي في المحمديّة ليُزين به حاشيته. بعد أسبوع في القصر، شحب بُوشْنَبْ وترهّل فتسلّل ليلا ليعود إلى شهيلي الشعانبي. «رَبِّي يَعْطِي الفُولْ لِلِّي مَا عَنْدُوشْ ضْرُوسْ. الكَعْبَاشِي كِ بْهِيمْ الشِّيخْ، يحيى ويموت على أرض الزّغالمه. دُورَهْ فِي بُوشِبْكَهْ خِيْرْ مِنْ بَارْدُو ومْحكِمْتَهْ».

كَوَزَكِي عطَّله الزّحام. لم يعد يصلح للسفر. تركت له وعاء بترول وزيتا واستودعته عند قنطرة وادي سرّاط. أَوْمَأْتُ له: «سأعود». شغّل ضوء مصباحه مرّتين: «دعني».

ترجّلتُ مع الزُوّار. لبستُ الصّوف، رداء أبيض يخفي ما تحت الصرّة، وذُبت في المسافة، هي الأهمّ، لا واحد من القافلة التي تسير يهمّ، هي الدّار ونحن الأثاث، كلّنا نُستبدل، إلاّ المسافة، لا غنى عنها. ميم المسافة والماء.

قصدتُ سيدي حمد الصالح لأمر يهمّ. (عاد همّام ليدفن أمّه، لَلاّ شويخه، يُشيّع جنازتها ويقبل العزاء. الفقر منعه من إكرامها وإقامة الفرق والأربعين. مُهمّة المستعار. هل هناك أعظم من هذا الهمّ يا همّام؟ حقّ الحيّ على الميّت).

الطريق مغناطيس يقودنا إلى زاوية سيدي حمد الصالح.

نيام مبتهلون للقاء. ماذا يخبّأ اللقاء؟ ميم في الجيد أو المريخ يهجم*.

مع الضُّحى، لاح الدوّار. سيدي حمد الصالح على حاله. متجر لبيع الطماطم والفحم والخبز والبنزين المهرّب وعَجَلِ الجرّار والحصّادة والسّكر وخِفاف البدويات والطباشير وحلوى الشاميّة والحلقوم ومشروبات كْرُوشْ وحليب الغول، مدرسة ابتدائية فيها قسم واحد لكلّ الصفوف ومربض للحمير، وسطه خزّان ماء مرشوق، قرب كومة التبن، مستوصف للأسبرين وحقن الكَلب، طاحونة عمّ الباهي، عشرة منازل، ملاجئ بُنيت وقت التعاضد والفيضانات والجبن الهولندي. تتخلّلها قبور من تراب، لا شيء عليها تستدلّ به عن ميلاد أصحابها ويوم وفاتهم، لا شاهد ولا بلاطة «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي» (الفجر 28، 29، 30).

الوديان ناشِفة والأرض شهباء والشّمس بيضاء كنار فرن، لا دولة ولا معتمديّة. اَلْعَالي نْسَاهَا. يُوكِلُوا فِي اِلْقُوتْ وِيِسْتَنُّو فِي اِلْموتْ. جِلْدِتْهُمْ حَلْفِتْ. اِلصْنَانْ يْعَطْرِقْ

* المريخ يهجم، فيلم محاكاة ساخرة لأفلام الخيال العلمي للسينيمائي تيم برتون، بطولة جاك نيكلسون.

والْحشَنْ عَامِلْ مْسَدْ. أَوْلاَدْ سِيدِي حْمِدْ الصَّالِحْ بَطْلُوا يُوكْلُوا، لِسْقُوا لِلْحْجَرْ، كِ الِحْجَرْ، حَتَّى الشَّجَرْ وَلَّى حْجَرْ، الِماءْ حْجَرْ، الْهَوَاءْ حْجَرْ، اِلسْمَاءْ تْحجِّرْ بِ الِحْجَرْ. اِلعْبَادْ اِسْتهِوْشِتْ. اِلْكْلابْ كْلابْ والِعْبَادْ أَقَلْ مِ الِكْلابْ.

العصر في كبد السّماء، في الطّبة العطشى، كلب أسود يطارد كلبا أبيض، عضّه من عنقه وتركه ينبح كسكّير مبحوح. ما عدى الكلاب، سيدي حمد الصالح تِمْشِي بِ الْقُدْرَهْ مِنْ غِيْر مَاءْ. وَادِي سَرَّاطْ طَاحْ. يَا جَاهْ رَبِّي. مَا يَنْفَعْ فَاهَا كَانْ حَرْقَهْ لِ لْمَبْدُوزَهْ.

أَلِلقاة مهريّهْ ونكدها والْعِجَّهْ بِ اِلزِّيتْ اِلشَّايِطْ أتَيت؟ شَقِّيتْ بْرُورْ وبْحُورْ وصارعت الأشكال والألوان ونجوت من قبضة الديناصور وكتائب الخنازير والعائدين من الوراء والمبعوثين من رميم الجلاّز. أَلهذا تعود أيّها الطَّرْقِي؟

تجعّدت مهريّهْ من فرط ضفر شعرها المُخبّل وغزل الصوف ونسيج الزربيّة وحفظ الكتاب، كأنّي بها جدّتي عارمْ تنطق جملا منثورة منقطّة، أمثالا مرفوعة وحكما منصوبة وعبرا مسكونة وكلاما سكّيرا، عهدي بها في المطبخ والماكياج وأكداس الدنّوس. من اليعفور الذّي علّمها شدو الخلود؟ أَقرصتها بقّة وباضت في مخّها فطنة البرمكيّ؟ ربّما صفعتها الأيادي التّي

تتكلّم وشربت من عين الميم. زغردت مهريّةْ للعائد من الأوديسية وأهدته شربة ماء السّائل وقوس أوليس ذي الوتر المتحجّر. سأل السّائل الرّاوية

- كيف حال محمد علي وعمّار؟ في صحّة جيّدة؟

أجابت مرويّةْ

- ضاع الفهم واختلطت قصص الحكاية وافترقت السبل وانقلبت الاتجاهات والوجهات كألواح مصحف بعثرها الماء. محمد علي هناك وعمّار هنا. أين الميم من العين؟ أين اليقين من الشمال؟ أين الصبح من العشاء؟ التوأم الملتصق، قبلة سؤوم. لا أدري مَنْ هو مِنْ هو؟ هو هو. وجه التوأم شفع ووتر. لا حلّ للمسألة. السؤال لا يسأل؟ همّام عطشان؟

- لا شيء يروي العطشان كما الفعل. أرى الفعل ثالوث اللّفظ، فاء، عين، لام النفي. الأب والابن والروح القدس، آمين. عجّل خطاك ولا تلتفت حتّى لا يصيبك الأذى.

- قُل للصانع مع المعلّم، «الفهم أن لا تفهم»[1]. الزوج والمفرد، عند السؤال، يتساوون ويذوبون في القصد. المُضارع يسبق الحاضر والمُسمّى يُخفي الاسم. لا تسألْ. اِفعلْ. إنّها قرقعة

1 من كتاب فيه ما فيه لمولانا جلال الدِّين الرُّومي. أهمّ أعماله، الرسائل والمجالس السبعة والرباعيات.

الفعل. كل حرف على مثلّث السؤال، لا يتزحزح عن موقفه. الاشتباك. ما السؤال أيّها السّائل؟ تجرّع من روح الروح وردّ على روحي يا روحي: «أوقفني في الموت فرأيت الأعمال سيئات ورأيت الخوف يتحكم على الرجاء ورأيت الغنى قد صار ناراً ولحق بالنار ورأيت الفقر خصماً يحتجّ ورأيت كل شيء لا يقدر على شيء ورأيت الملك غروراً ورأيت الملكوت خداعاً، وناديت يا علم فلم يجبني وناديت يا معرفة فلم تجبني، ورأيت كل شيء قد أسلمني ورأيت كل خليقة قد هرَبتْ منّي وبقيت وحدي، وجاءني العمل فرأيت فيه الوهم الخفي والخفي الغابر فما نفعني إلا رحمة ربّي، وقال لي أين علمك فرأيت النار. وقال لي أين عملك، فرأيت النار. وقال لي أين معرفتك، فرأيت النار. وكشف لي عن معارفه الفردانية فخمدت النار. وقال لي أنا وَلِيُّكُ، فثبتُّ. وقال لي أنا معرفتك، فنطقت. وقال لي أنا طالبك، فخرجت»[1].

مهريّهْ البُوهَالِيّهْ، المتلعثمة، معقودة اللّسان، المعقّدة، البَكْمَهْ، تحرّرت من قبضة الذّكر وصارت تهذي كحلّاق إشبيلية، فارضة طلاقة لسانها، مُعتزّة بحيضها. بيدبا يرتدي خِمار

1 موقف الموت، كتاب المواقف والمخاطبات لكبير المتصوفة محمّد بن عبد الجبّار بن حسن، الملقّب بالنّفري.

المليحة. «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...» (ابراهيم 4). أدركت أنّ لغة الأمّ سابقة للغة الأب، الماء قبل الوطاء، الأمّ مشتقّ الماء، الميم قبل الطاء، لزم الخروج من قحط الوطاء ومعتقل السنّة والفصاحة. البحث عن ماء التكاثر واللّقاح والبطاح والصباح والمقاهي والشوارع لا المدارس. يرجع الفعل من المهجر. اُترك اللّسان يلحس العسل من شهد الماء. قاومت مرويّة الضاد وسرقت من الرّيح والصرصور آياتٍ تنطِح الكتاب وفعل يذبح الحُقْرَه، جودو وبوشيدو، لْطِيخْ وتَفْشِيخْ، سومو. كلامها يتزلّج على الجليد، غبار يراقص السّين والنّون، مْسَامِرْ. لْعِجْ كِ البْرْقْ وإتْخَبّى وْرَاءْ السْحَابْ. حْكَايَهْ كِ المَاءْ، كْلَام خْفِيفْ يرْوِي العَطْشَانْ. إِيدِزّ. كْلَام شَارِعْ، خَارْج مِـ الْقْبْر، مِـ العْظَامْ، مِـ الكْفَنْ، يرْعِبْ، رُوحْ وإلاَّ مْلاَيْكَهْ سُودْ. الشِجَرْ تِمْشِي والرِّيحْ يِجْرِي وْرَاءْ الرِّيحْ والشّمْسْ ذِهْبِتْ والبْحَرْ يْطِيرْ والنْجُومْ طْفِتْ وضْوِتْ. مَا يتْقَالِشْ، مَا يتْحْكَاشْ، يتْشَافْ، يتْمَسّ، يحْكِي ويتْكَلِّمْ كِ لَعْبَادْ، يوكِلْ ويشْرُبْ ويرْقِدْ ويضْحِكْ وينْكِي ويخَمِمْ ويحِسّ ويعَاشِرْ ويحِبْ ويولِدْ ويُموتْ. قَتَّالْ، سَمّ. يمُوتْ اللِّي يَحْكِيهَ واللِّي يَسْمَعُو. كْلَام زُحَلْ، كْلَام أَوْلَادْ بِآسْمْ الله، إِطِيرُوا ويُوكْلُوا لْحمْ بَنِي

آدِمْ ويُشْرْبُوا الدّمْ وإِيقْلْعُوا العِينِينْ. سِرْكْ عَمَّارْ، صْيُودَهْ ونْمورَهْ وكَلْبْ البْحَرْ إِيصَرْفِقْ وكُلُونْ عْلَى خدّيهْ دَمْعَهْ كِ اليَاقُوتَهْ وكَوَزَكِي عَ الرَقوبَهْ يْصِيحْ: «نْموتُو نْموتُو وتْحيَا أطلنطا».

- آشْ حَالْ لَوْلاَدْ يَا بِنْتْ عَمّي، يَا عِينِينْ المُهْرَهْ، يَا خَدّْ الرُمّانْ؟

جلست مرويّهْ القرفصاء كحكواتي سوق الأربعاء تروي مُولَى العَرْكَهْ المُرّهْ

- محمد علي مات. غَسّلْتُو وسَدّيتْلُو رِيحْتُو بِ المِسْكْ. اِدْفِنْتُو. الرُّوحْ مِدّهْشْرَهْ، تِطَّايَحْ لِيمِينْ تْجِبْدْ فِي لِيسَارْ، الرّوحْ تْخَرّجْ فِي الرّوحْ، مَصْلُوبَهْ، غرّد معي يا نوّاب نائبة: «يا للوحشة اسمع / فوراء محيطات الرعب المسكونة بالغيلان / هنالك قلعة صمت / في القلعة بئر موحشة كقبور ركبن على بعض / آخر قبر يفضي بالسر إلى سجن / السجن به قفص تلتف عليه أغاريد ميته / ويضم بقية عصفور مات قبيل ثَلاَثِ قرون / تلكم روحي / منذ قرون دفنت روحي»[1]. محمّد علي باع وروّح : «أقتلوني، أنا الخائن الغدّار. أنا ابن تاراس بولبا*، الذّي

---

1 من قصيدة وتريات ليلية لـ مظفّر النواب. أهمّ أعماله، القدس عروس عروبتنا وقمم قمم واصرخ وجزر الملح.

* تاراس بولبا، رواية لـ نيقولاي غوغول.

أعطى للرّوس مفاتيح الدّار، اللّهْ لا يْطَيّحْهَا بِيكُمْ. كُلْ يُومْ تْعَرِضْنِي أُمّي، بِالْحقّ مِشْ فِي الْحِلْمَهْ، لابْسَهْ مَلْيَهْ ومْوَشْمَهْ، مَادّهْ إِيْدِيهَا، يَا كْرِيمْ مْتَاعْ اللّهْ. نَكْفِرْ، نْشُقْ لِبْلاَدْ كِ الْعْجَاجَهْ ونْسِبْ السْمَاءْ والوْطَاءْ. يَلْعِنْ بُو الخُبْزَهْ المُرّهْ». إلى الصديق والصديق والصديق يشكو فاقته : «زَعْمَة يْصَافِي الدّهْر يَا مَشْكَايَا نْعُودْ نَضْحِكْ بَعْدْ طَولْ بْكَايَا، آآه آآآآه». الرّوحْ مْعَلْقَة كِالدْجَاجْ. مَذْبُوحَة، مَسْلُوقَة، مْرَيْشَة. سِعْرْهَا فِي مِتْنَاوِلْ ضِعِيفْ الحَالْ، زَبُونْ الدْجَاجْ. إِشْرِي تِرْبِحْ، كِيلُو الرْجُولِيّه بِ حَقْ رَبْطَهْ مَعْدنُوسْ، رْطَلْ صَحّة رَاسْ بِ كَرْفُوسْ، عَنْقُودْ شْرَفْ بُوبْلاشْ. هَيّا يَا لَبّاسْ. الرّاجِلْ ومَرْتُو وبِنْتُو وعَرْضُو وأَرْضُو بِ سُورْدِي. يَا بَايِعْ الرُّوحْ وِينْ تْرُوحْ؟ مَازَالْ عَنْدِكْ وِجْه؟ إِنْفلقَتْ الصورة وانْطَفأَ الضوء وسكتت النّفس. ثَمّهْ رَاجِلْ مَا عَنْدُوشْ سُومْ؟ فِي البَازَارْ لِكْبِيرْ، الرّاجِلْ صُغُرْ وإِلاّ كِبِرْ، فَرْكِسْ مِلِيحْ، تَرْبِشْ مْصَارْنُو ورْوَارِيهْ تَلْقَى مْنِينْ الدّخْلَهْ: طْمَعْ وإِلاّ تْشَنْفِيخْ وإِلاّ فُخْره، الكُلْهَا مْسَارِبْ، إِطَيّحو لِ الدّنْك. قُقّهْ، شْوَيّهْ عْظَمْ، شْوَيّه دْهَانْ، شْوَيّهْ كِسْرَى عَرْبِي، وِتِتْحَلْ الشّاهِيهْ. مِنْ غُدْوَى يَرْجَعْلِكْ «هَايْ

مِيَاتْ دِينَارْ تَسِبْقَه، هَاوْ فْلُوسْ العِيدْ، هَايْ كْرارِسْ وكْرَاتِبْ لَوْلاَدْ، هَاوْ بَنْوَارْ لـ الْمرَاءْ، هَاوْ شَاكْ تْخَلِّصْ بِيهْ لِكْرِيدِي، هَاوْ كَرِيدِي». يْكَثّرْ خِيرْ نَاسْ اِلْخِيرْ. قْبَلْ غُدْوَى، يْقُصْ عْلِيكْ العَلْفَهْ وإِيْقُلِّكْ: «خَلِّصْ، أَهْبِطْ لِـ اِلْسُّوقْ، تِيّضْلِي فْلُوسِي». في كتاب «العرّاب»[1] لـ «ماريو بيتزو»، لـمّا طلب القبّار خدمة من دون «فيتو كورليوني»، كان يعرف، أنّه سيصبح مدينا له، وسيدفع ما عليه. ما الذّي دفعك للتعاقد مع عزازيل. في العقد بند : «زمّتك ملكي». أَلم تسمع قهقهة الشيطان التّي أغرقت الكون في الفضيحة؟ النجم والشمس والقمر، سقطت عزاءً للرّوح. لا أحد معصوم من فعل الأذى، بيع الرّوح. شْكُونْ إلِيّ قَالْ: «في كلّ خزانة جثة نتنة»؟ يَا عِمْبُو الفَقْر إلِيّ يْخَلِّي رَاجِلْ يْبِيعْ ظِلّو وذِمْتُو لِـ بَيَّاعِةْ اليَاجُورْ. إلِيّ بَاعْ رُوحُو مَا يعْرِفْشْ إلِيّ مَاعَادِشْ يسْوَى شَيْ وإِلِيّ شْرَاهْ فِي بَالُو شَرى الشَّيْ أَمَا هُوَ مَا شْرى حَتّى شَيْ. آتْ بَاعْ وإِلاّ تِشْرى الرَّاجِلْ وْفَى، مَاعَادِشْ يِسْوَى شَيْ. البَيّاعْ قْلِبْ الشَّارِي. الرُّوحْ آتْ خَرّجْتْهَا، وفَاتْ تْوَفَّاتْ. شِدْ الشَّمْعَهْ وضَوِّي. كِيفْ وَاحِدْ يْحِبْ يْبِيعْ الضَّوْ. يَاخِي الضَّوْ يِتْكَالْ؟ يِتْقَاسْ؟

---

1 وهو الوصيّ

تْنَجّمْ تْخَزْنُو؟ يِتْكِلْ؟ يِتْشْرَبْ؟ يِتْلْبِسْ؟ يِتْشَافْ؟ يُمْكِنْ يِتْشَافْ. أمَا عَ الدُّورَهْ يِذْهِبْ. لَوّجْ عْلِيهْ. قَدَّاشْ عْطَاهْ بَيَّاعْ اِلْيَاجُورْ، قَدَّاشْ خْذَى اِلْبَيُّوعْ: بَاكُو، مْيَاتْ بَاكُو؟ هَذَا سُومُو؟ هَذَا آشْ يِسْوَى؟ نْسَى إلِيّ عْمَلْ طْهُورْ وطَبَّالْ وزَكَّارْ وعْشَّى ووَكِّلْ وفِي كِرْشُو مِلْيَارَاتْ سْفَافِذْ؟ زَعْمَهْ كِ حَطْ رُوحُو عَ الطْيَاحْ، فِي اِلْبَتّهْ، عَيْرّ نَفْسُو مْلِيحْ؟ وِزِنْ رُوحُو بْ مِيزَانْ اِلْذْهَبْ؟ عَارِفْ آشْ قَاعِدْ يْبِيعْ؟ مَكِينَهْ قَلْبْ ومُخْ ولْسَانْ وعِينِينْ وشْفَايِفْ وإيْدِينْ تِتْكَلّمْ وذَاكْرَهْ وذْكَاءْ وعْمُرْ وقْدَرْ وشْرَفْ وحُبْ وصَدَاقَهْ وأُبُوَّهْ وأُخُوَّهْ وطِيبَهْ وحْكَايَهْ ونِضَالْ ومَعَارِكْ ووَقْفَهْ وطِيحَهْ وجُوعْ وقْرَسْ ومَرِضْ وحْبُوسَاتْ وعِزّةْ نَفْسْ ونِيفْ ورْجُولِيَّهْ. إلِّي بَاعْ رُوحُو، رُوحُو ونْعَاوِدْهَا رُوحُو، إلِّي هِيَ مَا هِيَاشْ مِلْكُو، مِلْكْ السْمَاء والوْطَاء، بَاعْ نْجِمَهْ وقْمْرَهْ، بَاعْ لَقْشَهْ مِـ الظْلَامْ والنْهَارْ والرِّيحْ، بَاعْ أَجْدَادُو، بَاعْ اِلحَيْ بَاشْ يَقْبِضْ اِلْمِيتْ. كُلْ مَنْ بَاعْ رُوحُو، رُوحُو ونْعَاوِدْهَا رُوحُو، مَا يِتْذْكّرْشْ مْلِيحْ، أمَا إلِيّ شَدّيتْ مِلِّي قَالُو، ناظم حكمت: «فِي كُلْ صْبَاحْ، فِي اِلْمرَايَا، يْشُوفْهَا تَطْلَعْلُو تْنَوَّحْ، تِبْكِي، تِنْدِبْ، مَلْطْخَهْ بِ خَرَاءْ اِلْخْرَاءْ، خَارْجَهْ مِنْهَا رِيحَةْ اِلْجِيفَهْ

تْعَيّطْ: «عْلاشْ؟ لْوَاشْ؟ آشْ عْمَتْلِكْ؟ مَانِيشْ رُوحِكْ؟ مَاكُنْتِيشْ تْنَجّمْ تْصُونِّي؟ مَاكُنْتِيشْ تْنَجّمْ تْحَافِظْ عَلَيَّا؟ مَازِلْتْ تْنَجّمْ تُخْزِزْ لْـ رُوحِكْ فِي الْمَرَايَا؟». مَا يْفِيدْ فِيهَا لا اللّهْ ولا آللاَّ وْخَيْتِي. يَلْعِنْ بُو الطْمَعْ إِلِيّ يْخَلِّي رَاجِلْ طُولُو طُولِينْ، عُرْضُو عُرْضِينْ، لْعَابِيزُو إِطِّيحْ عْلَى دِينَارْ. بْيَاعِةْ الْيَاجُوزْ فِي الشّحّةْ مَا يْقِدْهُمْ حَدْ. نَاتْنِينْ، عَافْنِينْ، مَا يْخَرْجُولِكْ الصُّورْدِي إِلا مَا إِطَلّعْ الرُّوحْ. يِشْرُوكْ وإِيْبِيعُوكْ قْرَاتِيسْ، مْجَانِي. يْحِبّكْ إِطِّيحْ السِرْوَالْ مَا غِيْر مَا يَدْفَعْ. هَذِيكَا حْكَايِةْ الثَعْلَبْ والغُرَابْ. دَبّرْ رَاسِكْ فِي الْجِبْنْ الْقَارِسْ. مَا كُنْتِيشْ تْنَجّمْ تَاخِذْ إِلِيّ بَاشْ تَاخِذْ، مَلْيُونْ، مِيَاتْ مَلْيُونْ، وتِبْعَثُو إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونْ. تِقِلْبُو، تُوخِذْ إِلِّي بَاشْ تُوخِذْ ومَا تْبِيعِشْ رُوحِكْ، رُوحِكْ ونْعَاوِدْهَا رُوحِكْ، رَايْ رُوحِكْ مَاعَنْدهَاشْ ثْمَنْ، مَا تِتْوِزْنِشْ بِـ مَالْ قَرُونْ. تُوخِذْ إِلِيّ بَاشْ تُوخِذْ وتْزِيدْ تِبْرِكْ فِيهْ، تْمِرْثْ فِيهْ، تِنْسَاهْ. يَاخِي عْطَاكْ حَاجِةْ هُوَ؟ الْقَلْبَةْ فِي الْقَلاَّبْ حْلالْ. ويْحِلّ كَشِخْتُو تْفَشْخُو وتِبْعَثْلُو شُورِبْ وعْلِي مْبَاصْيَةْ والغُرْد والتِّيقِرْ وتْمنَعْ عْلِيهْ المِحْوَاسَةْ فِي سِيسِيلْيَا. يْسَالِكْ، يْوَلِّي مُوسَالْ. وأَعْمِلُّو حْسَابُو وأَفْرَحْ بِيهْ. بِـ الْعِبْرِي

طُورِقْ عْليهْ واِرْدْمُو تْحت ضْلَفْ اِلْهِنْدِي اِلْعَزْرِي في وطاء الزّغالمه. لا مِنْ شَافْ لا مِنْ دْرَى. إِسْأَلْ الْمعَلْم دُوسْتفْسْكِي، كِ يِتْسَلِّفْ مِنْ تِرْقِينْيَافْ، يْزِيدْ يَحِقْرُو ويْسِبُّو ويْشُوفْ فِي رُوحُو فَكْ حَقْ مِنْ حْقُوقُو، مِنْ عَنْد وَاحِدْ رَاقِدْ عَ البَاكُو نَاتِنْ مَا يِسْوَاشْ. مَاكْ تَعْرِفْ دُوسْتُفْسْكِي دِيمَا طَايْحَهْ بِيهْ، عَنْدُو مْحِنِةْ اِلْقْمَارْ والْفْلَسْ كِ الدْجَاجْ لَسْوِدْ دِيمَا دَايِرْ سَايِرْ بِيهْ، يْفَرْكِسْ عْلَى أَسْقِطْ الْمسَاقِيطْ ويْمِشِيلُو بِ قْبَاحَهْ، يْكَسّرْلُو خُلْقتُو. تِي أَعْمِلْ كِ بُونَا الطّيّبْ، يِمْدَحْ وإِيْعَلّي وإِيْتِهّي ويِكْرِفْ بَاكُو «إعطه ألف دينار»، و عَ الدُّورَهْ يَرْكَحْ سَبْ فِي كَافُورْ الإِخْشِيدِي، يِرْكِبْ حِصَانُو وإِيْقُولْ: «جَوعانُ يَأكُلُ مِن زادي وَيُمسِكُني / لِكَي يُقالَ عَظيمُ القَدرِ مَقصودُ». أَبُو الطَّيِّبْ خَمّجْهَا، عَبّى كِرْشُو، خَالِطْ الفُسَّادْ والسُرّاقْ، أَمَا مَا عُمْرُو مَا وَرّى الضَوْ، مَا عُمْرُو مَا وَاحِدْ شَافْ رُوحُو، مَا عُمْرُو مَا وَاحِدْ إِتْكَشّفْ عَلَى عْشَاهْ، مَا عُمْرُو مَا وَاحِدْ دْخَلّو لِ مُغَارْتُو، مَا عُمْرُو مَا وَاحِدْ تَرْبِشْ غُولُو. آتْ تِنْوِي تِسْرِق الضَوْ مِنْ عِينِيهْ، يْكَشْرْ: «فلا تظنّ أنّ الليث يبتسم». قَرّبْ، زِيدْ قَرّبْ، يَضْرْبِكْ اِلتْرِيسِيتِي. تُقْرِبْ شْوَيّهْ، نْشِمْ رِيحْتِكْ، تَلْعِجْ عْلِيكْ، تْرَوّبْ عِينِيكْ. آآآخْ، كِ شُفْت محمد علي

ذْلِيلْ، وِجْهُو ضَارْبُو البُوسُفِّيرْ، يْتَسْكْسِكْ عْلِيهْ الطْحِينْ، خَبّيتْ وِجْهِي مَا بِينْ إِيْدَيّا، خَاطِرْ شُفْتْ رُوحِي فِيهْ، رُوحِي مِنْ رُوحُو، رُوحْ وَحْدَهْ. لَطّخْهَالِي بِ الْخرَاءْ، ذْبَحْهَا مَا غِيرْ مَا شَهّدِ. يْصِيرْ عَ الرْجَالْ. أَمَا إِلّي صَارْ عْلِيهْ، حْكَايَهْ ظْلامْ، حْكَايَهْ مَا تِتْحْكَاشْ. حْكَايَهْ إِذَا فَاحِتْ، كِ الْمَنْقَارْ يْنَتِّنْ دُوّارْ. كنت أوّد أن أقول له: «إرفع رأسك يا بُنيّ». سبقني عزازيل والتهم ظلّه. «انحني حتّى أنتزع عنك رأسك دون أن أؤلمك». سيّاف، اعدمه.

تألّقت مرويّهْ في المسرحية والكوميديا. ما كان لها أن تصيغ وتلفظ تراجيديا محمد علي إلاّ بلسان الذَّكْرَهْ. لسان الحيّة والأداء مذهل.

خرجتُ من مسرحها القاتم مفتونا بدور محمد علي. أتسلّل إلى كواليس الرّكح ككومبارس النار ولا العار، روحي تلتهب وعزازيل يلتهم نُخاعي. سيّاف، قبّلني، أنا محمد علي البيّوع. «يا يهوذا، أَبِقبلةٍ تُسَلِّمُ ابن الإنسانِ؟» (لوقا 22: 48).

محمد علي، حارس لا النفي، عدوّ لا الأمر، الأمير ميشكين الأبله*، إذا دخل بيتا أو حفلا يضوي كضياء الملك داوود، المبشّر بالشلطتين (=) في ماء أطلنطس، ينقلب على المكتوب عليه،

* الأبله لـ فيودور دوستويفسكي.

ويهدر الماء ويتنكّر للأمانة ويسلّم ظلّه لعرش حضرصمت، جهاز طاطا. خان الميم، البحر الوافر. لا أصدّق. محمد علي الصِدّيق، الهارب من شباك طاطا، يقع، بهَوَادَة، لقمة سهلة، على خطّ الوصول، حدّ الميم. يرتدّ ويدخل عرش طاطا ويعتنق ضاده.

اعتقدته صنديدا، من صلب محمد علي ملك الرِّيْنْغ. تسقط الأندلس ولا يسقُط. جاهل بسيل ابن الإنسان. لكلّ آخيل كعب. هذا ضعفه الكبرياء وذاك الطمع ومحمد علي الفُخْرَة والغرور. بحثوا في خزانته ووجدوا الجثّة النتنة. من التصدّع تسلّل العرش وتربّع.

حين يمرّ، يُحبّ أن يُقال عنه «محمد علي سيّد الرجال، شريف القوم، مشهور بصلابته ومجازفاته وعدم انحنائه للحاكم بالصمت». محمد علي يتغذّى من الشّهرة، نافخا صدره كديك روميّ، يريد أن يشار إليه «رجل في الوطاء». المعجبات والمعجبين أوسمة على صدر هيلا سِلاسي.

بعيدا عن التهليل والتَبَنْدِيرْ، يذبُل. أَحَبُّ الموسيقى لأذنه، غنّاها له الدولاب: «روحك من روح الكعباشي، يا من يتجنّبك الغوريلا. يا غوريلا. يا من يهتف لك الصّدى والصّدى يردّد الصّدى. سلام عليكم يا فالق المستحيل».

بسطوا له الأرض مرايا برّاقة. ألبسوه خوذة قائد أركان الجيوش

التّسع . قلّدوه نشان الماريشال عمّار* ودقّوا الطبلة. أوهموه بأنّ طاطاوين في خطر وقالوا: «أنت النّاصر».

باع الذئب القلادة وابتاع فرو الأرنب. سلّم قطعة نبيلة، الملكة أو القلعة، وحرّك البيدق. كِشّ، مات الشّاه. حيّدوه. حيّدوا ص الصنديد فيه. لم يعد صادا. أفرغوه من صلصاله. صار خاويا، خالي المروءة. ديكور للفرجة واستبهال النّاس وتطعيم المهزلة. إن سألوك عنه، قُل مات.

عدتُ إلى سيدي حمد الصالح لأمر يهمّ. أين الصحيح؟ في المبتذل. يعرفني وأعرفه. لا حاجة لمزيد من التعارف. خيّمت خيبة الأمل وسلّمت أمري للضجر. أجلس القرفصاء على حافة الطريق وأعّد الخرفان وأراقب الحافلات والسيّارات الملعونة تمرّ وأقشّر قلوب عبّاد الشمس. حِلْوْ ومُرّْ لِينْ يُوفى اِلْعُمُرْ. «غودو» يعتذر. رائحة اِلْعِجّهْ بِ اِلزِّيتْ اِلشّايِطْ تَزدريني. أحمدُ اللّه. «وَأَمّا بِنِعْمَةِ رَبّكَ فَحَدِّثْ» (الضحى 11).

خدعوني. قالوا لي: «عدْ من حيث أتيت وسيفتح عليك». أريد وطائي. أريد نصيبي من الطاء. حقّي وحقّ كافي الذّي جمّع القطن في مزارع التكزاس وتظاهر مع عمّال شيكاغو

* من مسرحيّة الماريشال عمّار لـ علي بن عيّاد (1930 – 1972). بطولة حمدة بالتيجاني (1901 – 1983).

وحفى على طاولة مفاوضات هُوشِي مِنْهْ. تحت الكرمة الصلعاء التّي لا تثمر، أقتل بخيل «سمرقند». تَوّا تَوّا. أفتكّ منه ماله وما كسب وأطلّق مهريّهْ وأتزوّج سعاد حسني وأدعو عادل أدهم ورشدي أباظة على المشوي يوم الأحد ونتسلّى بأولاد أحمد. لستُ أهذي، عازما على إسقاط غصن الكرمة الصلعاء. دقّوا النواقيس وإلاّ أشعلتُ نفسي ولتشتَعل البلاد. نَكْرَهْكُمْ دُغْرِي، مَاتَعْرِفْشْ علاَشْ.

في سيدي حمد الصالح، يطوف الموكب بالزّاوية، يناشد الحاضر باسم الغائب، اللّطيف يلطف، مفترق الطائين، طاء المُشال، ماء الفرق. الأيادي الموغلة في الورطة، تهتزّ لها مدارج القبور: «أطلنطا... أطلنطا». أطلنطا لا تستجيب.. تركتهم لوشائجهم وقصدت السؤال. عمّار أصل البليّة أم حدّوثة أطلنطاوية تناقلتها الرّكبان؟

رَوَت مرويّهْ عن مضض غير متأكّدة ممّا سيرُوي همّام.

يُشاع أن عمّار ذاق لعمة الطائين، اللعنة والنعمة، دخل حضرصمت وخرج منها مقصوص الرّأس واليدين، مثقلا بالمُشال. باع جمّازته واشترى سيجارة المعدوم. اجترّه الحوت وداسه العمر الرّذيل. انتزعت عينه وبُتر لسانه وثُبّتت الزّانية زهرهْ في معصمه، لقيط الفضيحة، عيّروه: «الدّيوث... زوج

القهرمانة»، رموا خلفه الملح حتّى يذوب فلا يعود. خرج ولم يخرج. هام في طاطاوين، جاب غابات النمر والهند، قامر بفلوكته في النّيل الأبيض، قرصه برد الصّحراء الكبرى. لمّا عاد مبتور السّاق، محمّلا بالسّاعات والكِبر، قال للذّين ينظر إليهم من فوق الكاف: «على الأقلّ عرفت الحب الكبير»، «أنظرُ إلى التحت لأنّي فوق المائدة»[1].

عمّار المتفوّق، الفائز بلقب المختار عن جدارة. ارتقب مجيء المعذّب باليأس. لمّا حضر الصحيح أمسك بلحيته وهمس في أذنه: «أنا يحيى».

زوس إله الأولمب صلّى وسلّم على تيزي ورفعه إلى ربوة الربوبة. تيزي خرج من فكّ الإهانة والحُقْرَةْ والمذلّة، سفّ التّراب، لكنّه لم يَرْمِ المُشال من طائه وتمسّك بضمّة المرفوع.

عمّار سافر في اللّفظ السّحيق، أزقّة الجنبري. مكث أربعينا بين قوم الحرف ومدار الأرقام، أخذ منهم سرّ الزقزقة وقبح الكلام، فتح الأذى، صار يهدر مع العيون في بلاد العيون. العين ذات اللّسان.

أَهو حرفيّ الحرف المضارع، حبر العيون، باب يحيى؟ حرف ابن الإنسان، ابن المكان والأوان، حرف له ظروف، يجوع

1 عن فريدرخ نيتشه، هكذا تكلّم زرادشت.

ويأكل من ثدييه، يوم له ويوم عليه، هو والأنواء، مزاج معكّر أو مطروح كفهد افترس ثورا، عانق الطّلق والطرد، أحبّ وأحبّوه، غدروا به وغدر، كِيفْ النَّاسْ وخِيْرْ مِـ النّاسْ وأَقَلْ مِـ النَّاسْ. ابن اللّسان الكادح، لابس البذلة الزّرقاء، نازل إلى آبار الفحم، حالم بالحب الكبير. الكلمة من صلبه وذويه، «الّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ» (البقرة 146). كِلْمِةْ الْعِينْ، لَا يْغُرّْك، جُودُو وبُوشِيدُو، هَاغَاكُورِي، كتاب السّاموراي المقدّس، مُوطُورْ كُوزَكِي مْقَلِّسْ، مَا عَمْبَالُوشْ، بُونْيَةْ خدَّامْ، اِلْكِلْمَهْ يُخْرِجْ مْعَاهَا صُوتْ يْجَمّْدْ اِلدَّمْ، تِتْشَلْ وتْوَليّ حْجَرْ. إِنْتِ وبَدْنِك. اِلرُّوفَهْ لا. آتْ تُشْرِبْ مِنْ عِينْ اِلْكْلامْ، تِتْحَلْ جَعْفرِيَّهْ، ضَربْ مِشْ بِالصْوَابْ، ضَوْ، تِتْهَزْ وتِتْنَفَضْ، غْيَاطْ وزِيَاطْ وأُمْبِيلُونْس، اِلْموتَى بِـ الأكْدَاسْ. رَانِي نْفَخّمْ. تُغْمِزْ فِي عِينْ اِلْحبَارَهْ؟ رَصّاتْلِك تْشُوفْ اِلْحرُوفْ أَلْوَانْ أَلْوَانْ، اِلأَلِفْ شَارْدَهْ، اِلنّونْ مْقَعْمْزَهْ، اِلسّينْ مُنْشَارْ، بَطْو سُكْرَانْ، لَرْضْ خَزّتْ وعَمْلِتْ جْبِينْ و عَ اِلْجبِينْ تَجاعِيدْ، اِلْخوفْ طْمَعْ، اِلذْكَاءْ مُشْ فِي اِلرّاسْ، فِي خَزْرةْ اِلْعِينْ.

مْجنُونَهْ اِلْعِينْ. خُوذْ أَيْ دَمْعَهْ، بِـ اِلزْهَرْ، خَيْرْ

أيْ كَارْتَهْ، لَصْ خْفَيّضْ، اِلسَّبْعَهْ زِبَّانْ، مُوجِيرَهْ وإِلا رَيْ قْلُوبْ. اِتْطِيحْ عَ اِلْكَفْ. اِلْوَرْقَهْ إِلِيّ هَزّيْتْهَا بْ اِلزْهَرْ وعِينِيكْ مْغَمْضَهْ تَلْقَاهَا مْرَصْفَهْ، مِبْنِيّهْ، مِقْدِيّهْ، جُمَلْ جُمَلْ شَادَّهْ اِلصَّفْ فِي فَقْرَهْ. اِلْفَقْرَهْ كْ اِلْكَبْسُونَهْ، مَكْبُوسَهْ بِ جْوَانَاتْهَا، بْ قْرَابِيطْهَا. وِينْ لْمِسةْ اِلْمْعَلِّمْ؟ رَمْشِةْ اِلْعِينْ. تِعْمِيكْ خَزْرِتْ اِلْفَنَّانْ. كْ تَقْرَالُو، تْشُوفْ اِلْجْمَلْ وَاقْفَهْ، مْبَزْعَهْ. اِلْمْعَلِّمْ يِتْكَلِّمْ بْ إِيْدِيهْ وِيكْتِبْ بْ عِينِيهْ. اِلْعِينْ قْلَمْ، نَظْرِتْهَا، دَمْعِتْهَا، غَمْزِتْهَا، كِلْمَهْ، بُوسَهْ، عَضَّهْ، سَبَّهْ، جُوعْ، فَرْحَهْ وتَطْفَى، تِتْحَلْ اِلشَّفْرَهْ عَ اِلْفَقْرَهْ اِلجَّايَهْ. «خُوذُو عِينِي شُوفُو بِهَا». اِلْعِينِينْ تُشْرِبْ. رُدْ بَالِكْ تِدَّهْمِكْ، جِيعَانْ مَلْهُوفْ، تِحِلْ عِينِكْ عَ اِلْمَكْسُوفْ. تَعْمَى. يَا وِلْدِي، لا يْغُرِّكْ، اِلكِلْمَهْ، لا خْلِيقَهْ ولا صْنِيعَهْ. تْشُوفْهَا إِدِّبْ كْ اِلنَّمَّالْ عَ اِلْمَلْحَفَهْ اِلْبِيضَهْ، طَالْعَهْ، هَابْطَهْ، تِتْكَرْكَبْ، اِلْحَجْرَهْ مِ اِلْكَافْ، إِدُّورْ عَلَى رُوحْهَا، مِسْمَارْ مْلُولِبْ فِي حَطْبَهْ، طَايْرَهْ، مْزَفْتَهْ، تُوقِفْ ضَرْبَهْ وَحْدَهْ كْ خْنَشْ بُو مُغْرِفْ، نَاوِي عَلَى لَسْعَانِكْ. يُوكْلِكْ اِلدُّودْ وإِدُّورْ بِيكْ اِلْكِلْمَهْ، دْمُوعْ اِلْعِينْ، ذْيُوبَهْ، سَمَّلْ وشَهَّدْ، قَاتْلِينِكْ، قَاتْلِينِكْ. اِلْكْتِيبَهْ جُودُو وبُوشِيدُو، اِلْحَرْبْ

والْسّلمْ*، اِلْكُلْهَا حْرُوبَاتْ، فِينْقَهْ، كَرْتُوشْ وسْيُوفَهْ
ودَبَّابَاتْ ودْمُومَاتْ وحْصُنْيَهْ مِتْشَلْقْحَهْ، طَيَّارَاتْ تْزُقْ
فِي اِلْعَظْمْ، هِيرُوشِيمَا تْمْحَاتْ، طُفْلَهْ صْغِيرَهْ فِي
اِلْفِيتْنَامْ، عِرْيَانَهْ، شَارْدَهْ، حْرَقْلْهَا اِلنَّالْم حَلْوِتْهَا.
اِلْقِيَامَهْ قَامِتْ. صُونْ قَدْرِكْ وطَيِّحْ، لا تِشْرِي اِلشْبُوكْ،
لا يْغُرِّكْ بَدْنِكْ. خَاطِيكْ اِلْكْلامْ بِ اِلاِيدِينْ واِلْكْتِيبَهْ بِ
اِلْعِينِينْ. أَلْعِبْ قُدّامْ بَابْ دَارْكُمْ ومَا تِعْتَبِّشْ حُوضْ
اِلْعِينْ اِلْحولَهْ. غَادِي مْحَلْقِينْ اِلْخَايْبِينْ، مْرَكْحِينْهَا
جُودُو وبُوشِيدُو. شْكُونْ يِرْفِنْ شْكُونْ؟ اِلْمِيزَانْ ثْلاثَهْ
مِيَاتْ كِيلُو بِ اِلْوَافِي، لْطِيحْ سُومُو، هَاكْ اِلدْبِيَّهْ اِلْعْرَايَا
إلِّي عَشْعْشُوهُمْ بِ اِلرّوزْ ولْحِمَةْ اِلبَالِينْ، يِدْهْنُولْهُمْ
جِلْدِتْهُمْ بِ زِيتْ اِللُّوتُوسْ. مُشْ عَرِكْ دْرَارِي، عَرْكْ
فْيُولَهْ واِلْجْمْهُورْ فْيُولَهْ وبدر شاكر السّيّاب فِي اِلْفِيرَاجْ،
يْدَمِّعْ : «عَيْنَاكِ غَابَتَا نَخِيلٍ سَاعَةَ السَّحَرْ أَوْ شُرْفَتَانِ رَاحَ يَنْأَى
عَنْهُمَا اِلْقَمَرْ»، اِلْعِينْ تْرَشْرِشْ فِي اِلْعِينْ. صَبْ اِلرّشْرَاشْ
واِلْنّوْ رْقِيقَهْ. اِلْغَدْرَهْ واِلضّرِبْ تِحْتْ اِلْحْزَامْ. غَادِي تْحْلَى
اِلْفُرْجَهْ. يْهِيجْ اِلْجْمْهُورْ، كِلْمَهْ ضِدْ كِلْمَهْ واِلضّرْبَهْ بِ
أَخْذَهْ. تْطِيحْ بِيكْ كِلْمَهْ بُوخُرْطُومْ، عِينْهَا مْحَوْقَهْ،

* الحرب والسلم لـ ليو تولستوي.

شَارِيَهْ اِلشْبُوكْ، مْقدِغْلَهْ ومْزَلعْطَهْ، شَحْمِتْهَا غُلْظِهَا خَمْسَهْ صَانْتِي، اِلْحَاجِبْ بِالْغُنج، مْجبُودَهْ، مَكْبوسَهْ، كِ كُورِهْ اِلْرّقْبِي. كِلْمَهْ شَايْشَهْ، مِتْشَنِفْخَهْ، عَنِدْهَا اِلْنّيفْ، صْدِرْهَا مَنْفُوخْ كِ صْبِيّهْ مَا زَاتُوشْ. تْهِدْ كِ سْبَارْتَكُوسْ. رْكُوبْهَا غَالِي. تْشُوفْ عَمّارْ وْلِدِي كِ الذّبّانِهْ عَلَى خْشَمْ اِلْقَاضِي. جُمْلَهْ تِتْحَرّكْ بِ اِلْرّنّهْ وتِهْجِمْ كِ اِلبْرقْ. وِينْ عْبَارْهَا؟ وِينْ اِلْفِيُولَهْ، وِيِنْي اِلصْيُودَهْ، وِينْ اِلْبَانْدِيّهْ؟ آتْ خَرْجِتْ لِ اِلْبَطْحَهْ، تْشُوفْهَا فِرْ فِرْ، مْوَشْمَهْ عْلَى زِنْدهَا خْطَرْ، خْطَرْ يِمْلِكْ فِيِنْيَارْ إِدُّورْ بِيهْ مِنْ سُوقْ لِ سُوقْ، يْجِي عَلَى حَافِةْ اِلْوَادْ ويْحُطْ عَجْلِةْ اِلْفَرْتُونَهْ وكَارْطِةْ اِلزّهْرْ، كَحْلَهْ حَمْرَهْ ودْرَاجِحْ وكَرَايِيَاتْ لِ اِلصيّادَهْ اِلْغَفّاصَهْ، تَاوِينْ يْقَلْعُوا دَبْدُوبْ، دِبْ مْكَمّلْ، عَامِلُّو كْمَامَهْ، لا يْعَضْ لا يَزْهِرْ، لِ الزّينَهْ. خَطَرْ فِي خَطَرْ، مَا تَعِرْفُوشْ عْلِيهَا، وَقْتَاشْ تِتْقِلِبْ، تِطِلْعِلْهَا اِلْكَلْبَهْ بِنْتِ اِلْكَلْبْ، تُدْخِلْ تْعَفّسْ وتْرَفّسْ. اِلْكِلْمَهْ خَطَرْ عَلَى عَمّارْ، لِيلَهْ عَلَى دَلِيلَهْ، مَاتُوا إِلّي قْرَوْا، عَاشُوا إِلّي كِتْبُوا. نَاظِمْ حِكْمِتْ مَا يِكْبِرْ فِي عِينُو ويِشْهِلْ كَانْ مُولَى اِلْعِينْ اِلْبْرقَهْ: «كان عملاقاً ذا عينين زرقاوين / يحبّ امرأة صغيرة البنية / وضاقت المرأة القصيرة

القامة / التي كانت تحلم بحياة هادئة / ذرعاً بمرافقة العملاق / على دروبه الوعرة / فودّعته ذات يوم / كي تعبر بين ذراعي قزم فاحش الثراء».

تجلّت مرويّهْ وتسلطنت، تروي القصّة من وحيها، تضيف ما طاب وتحذف ما لا يدخل السّرد، حتّى أصبحت الحكاية خرافة، قريبة من الوهم، بعيدة عن الصّح، ما فوق الخيال والعقل، لا تصدّق.

لـمّا وصلت سيرة عمّار إلى مسامع همّام، همّام المقدام، ضحك من فرط المغالاة وإلتواء الأطوار وتهويل المغامرة. دبشليم الملك يسأل وبيدبا الفيلسوف يروي : عمريطا، وْلِدْ سَمُّوهْ، بُوهْ وأُمُّو، عَمّارْ، كِ طَهْرَاتُو مَرْتُو زَهْرَهْ عَلَى الْجُّونْطَهْ، وَلّى يَكْحِطْ بِ لا عَجْلَهْ ولا شُمبْرَارْ، لَبْسُوهْ مَلْيَهْ ودَخْلُوهْ حَمّامْ اِلنْسَاءْ، سْوَاكْ وحَرْقُوصْ وفَحّْجْ عَلَى كَانُونْ بْخُورْ ووْشَقْ وجَاوِي. عمريطا، عِنِينْ بْقَرَهْ وشْفَايِفْ مُهْرَهْ، شَلِغْمِي، يْشَبّهْ لـ عُمَرْ اِلشرِّيفْ، عَاطِي عَلَى زُلَيْخَهْ، مسَرّحْ شَعْرُو عَلَى طُولْ ظَهْرُو كِ نَاسْ بِكْرِي، هَابِيلْ، تْقُولْ عليهْ زَاپَاطَا في فِيلمْ زَاپَاطَا. مَهْرِيّهْ، أُمُّو، كِبْرتُّو وَحْدْهَا. إِبِّيُّو، هَمّامْ، مشَى يفَلِّقْ فِي غَارْ دِمَاوْ مَعَ بُومِدْيِنْ، عَرّسْ بِ شَاوِيّهْ، اِلْعِينْ

زَرْقَهْ والزّنْدْ حليبْ شهَدْ. آشْ مرَوّحْ بيهْ لـ مَهْرِيّهْ الزّرْقَهْ؟

الْحالْ حَالْ اللَّهْ، تُرْبِطْ مَهْرِيّهْ عمريطا عَلَى ظْهَرْهَا كـ الشّلّبُوطْ وإتْعَيّطْ ازْوِي يَا عُطْشَانْ، الْشّكْوَهْ فَاضْتْ. زِهْيتْ مَهْرِيّهْ، رْكَايِبْهَا مَاعَادِشْ هَزّتْهَا في الْصّعْدَهْ، جَاعْ الطْفُلْ، عُمْرُو سَبْعَهْ، قَصّتْ بَزّولْهَا وشْوَاتْهُولو. كْلَى، شْبَعْ، رْقُدْ. مَا فَاقْ كَانْ كـ الشْعَرْ نْبتْ في ضَبّوطو وخْلاتْ زَهْرَهْ في عِينُو. طَاحْ يْجِيبْ ويْدَلّلْ ويجْبِدْ مـ الْبِيرْ مَا غِيرْ مَا يْرَجّعْ. نْكْرتْ زَهْرَهْ. إتْكّتْ عْليهْ وقَصّتْلُو مَاعُونو وتْسِبْلتْ. الْموتْ مَا تْشَاوِرشْ. نَاسْ قَالتْ هِبْلتْ ونَاسْ قَالتْ تْسحْرتْ، يِمْكنْ وْقِفْ عْليهَا سِيدِي عَبْدْ الْقَادِرْ الْجِيلاَني في الْمَنَامْ: إتْقُوصِيّهُولُو، إتْقَصّتْ الْرّاطْسَهْ مِنْ أَصِلْهَا وفَصِلْهَا وعِرْقْهَا لُولاني.

النّاسْ مَا تَرْحمشْ، رِجْمُوهْ: «يَا مْخصِي، يَا خَنْثَى ذْكَرْ». ضْرَبْ وتِضْرَبْ. سَالْ دَمّو وسَيّلْ الدّمْ. شَدْ شْهُورْ ودْهُورْ، عَارِكْ، مَا فَادْ فِيهَا شَيْ، سَبّلْ وهْرَبْ لـ كَدْوةْ الْجبَلْ. سْكِنْ في النْجومْ، عَاشْ مَعَ الْجْنُونْ ولَرْوَاحْ، يْعَارْكُوهْ ولا يْعَايْرُوهْ. كُلْ لِيلَهْ، عمريطا يْشَعّلْ الْجبَلْ

ويمشي مع الشجر، جذور البشر. الناس تستخايل
حريقه. الحريقه طلعت جن وإلا جنيه، أصل الجن
ذكر وأنثى، تعرّس بيك وتعرّس عليك، إذا خذاتك
ولبساتك، ليك وليّا ربّي.

عمريطا لقى نصّو، ما حاجتوش يعلّق منجل، من
تالي، من قدّام، آت بركه تجي لحلاوه. الجن وإلا
الجنّيه، نفس وخيال وظل شيطان وهواء، تشوف
الدّخان يتحرّك، أمّا ما يتشدّش كـ الزّمبراك كـ يتملّص،
كلّي عندو لحم وشحم وعظم. أمّا الطّرح هو هو
معاه، تجيك و تجيبهالك ما غير ما تستحلم، اللّعب
معاه أبن م اللّعب مع شنتيه مازال ريقها حلال.
حازاتو جنّيه، رمت روحها عليه، «هذا سهمي، لا
واحد يشاركني». ضربت على قرادها وفصعت من
ترابو لرواح ولشباح، غنّتلو، رقّصتلو، عرّتلو. بنيت بيه
وتزوجتو. ولفه وعشره وحب جن وجنون. «وكان العملاق
يحبّ مثلما يحبّ العمالقة»[1]. عمريطا كركب منها ثلاثه،
ما يشبهو لـ شي، لا إنس لا جن: الجهامه جهامة
غول والبدن بدن عبيّثه. شكولات، عظام، داير ساير بيه

1 من قصيدة العملاق ذو العينين الزرقاوين لـ ناظم حكمت.

دُخَّانْ أَشْحَمْ، يِتْلَوِّنْ كِ أُمْ اِلْبُويَا، أَحْمِرْ عَلَى أَزْرِقْ عَلَى أَصْفِرْ، كَانْ مِتْغَشِّشْ يِسْوَادْ، كَانُو زَاهِي مْنَوِّرْ.

عمريطا مَا نْسَاشْ، فِي اِللِيلْ، فِي اِلنَّهَارْ، عَ اِلْفَجِرْ، إِشِرْ عَ زِرِّيهْ اِلْعْبَابِيثْ وِيِبْعِثْهُمْ هِيجُوجْ مِيجُوجْ، يْقِيمُوا لَذَانْ فِي النَّاسْ، إِلِّي عَايْرُوهْ وهَجُّوهْ وسَمُّوهْ عمريطا بَعدْ مَا سَمَّاتُو أُمُّو وإِبِيُّو عمَّارْ. ثُمَّ يَعُودُونْ إِلَى قَوَاعِدِهِمْ سَالِمِينْ. مَا عَنْدْهُمْ مَا يَعمْلُوا، وَالُو. هَضَا مَا هُوشْ عمريطا اِلْمْخْصِي، لَحْمْ وِدَمْ وشْحَمْ، حَلالْ اِلسَّبَّهْ فِيهْ، هَاضُمْ قْضَا جَاءْ مِنْ وْرَاءْ اِلْحُصْحَاصْ، مِنْ بْلادْ اِلغَرْقَهْ والضَّلَفْ وِالعْقَارِبْ، مِنْ وَرَاءْ حِيطْ اِلثِلْجْ، مِ اِلشْعَانْبِي، غَابَهْ بُوشِبْكَهْ، مْشَعْلِينْ اِلنِّيرَانْ، لِيلَهْ عَلَى لِيلَهْ، يْضَحُّوا بِ طُفُلْ صْغِيرْ، يِشُوُا بِيهْ كِبْدِهْ مْوَالِيهْ. يَاخِي اِلنَّاسْ آشْ عَنْدهُمْ غِيرْ أَوْلادْهُمْ؟ إِيْوَكِّلْ، إِلَبِّسْ، إِقَرِّي، يُصْرِفْ، مَا يِكْبِرْ رَاسْ حَتَّى إِيْشِيبْ اِلرَّاسْ. هَذِيكَا اِلدُّنْيَا. يْعَدِّي عُمْرُو شَاهِقْ فِيهُمْ، كَايِنُّو جَابْ اِلصِّيدْ بُوقْلَادَهْ مِنْ وِذْنُو، كِ اِلوِزْ إِلِّي رَاقِدْ عَ اِللْوِيزْ، اِلْقِرْدْ فِي عِينْ أُمُّو غْزَالْ. عمريطا يِشْوِيهُمْ فِي أَعَزْ مَا عَنْدْهُمْ، يْخَلِّيهُمْ يْبُولُوا اِلدَّمْ. تِمِسْهُمْ فِي عِينْهُمْ ولا تْمِسْهُمْ فِي ذِرِّيهُمْ. عمريطا، مَا عَنْدُو مَا يَعْمِلْ

بْ عِينِيهُمْ، أَوْلاَدْهُمْ مَمُّو عِينِيهُمْ.

غْشَاشَرْ اِلْفِيلاَجْ غْلَى وْلَى، طَهَّرْهُمْ عمريطا مِنْ جْدِيدْ، طْهَارَهْ بَعدْ اِلطْهَارَهْ، طْهَارِةْ مَرْتُو زَهْرَهْ، بْ مُوسْ حَافِي، إِنْقُصْ اِلْمَاعُونْ، تَبْقَى نُقْبَهْ، شَقْفِةْ بُولْ. غْشَاشَرْ اِلْفِيلاَجْ عَايْرُوهُمْ، كَرْهُوا، مَا عَنْدهُمْ وِينْ إِتْقُوا رُوسْهُمْ، شَدُّوا اِلثْنِيَّهْ ولْحقُوا عمَّارْ مُولَى اِلْعَرْكَهْ اِلْمرَّهْ. عمريطا مَا عَادِشْ وَحْدُو مْعَرِّي عَ اِلزَّرْقْ فِي سِيدِي بُو عِزْيَانْ، لاَ يِحْشِمْ لاَ يَجْعِزْ، مَا عَنْدُو مَا يُسْتِرْ، اِلْعُرفْ وِالتَّمْرَاتْ نْسَاهُمْ كِيفْ مَا نْسَى تَزُّولْ أُمُّو، تِفْطَمْ بْ الغَدْرَهْ ووَلّى فْطِيمَهْ، بِنْتِ اِلْذّكْرَهْ.

عَلَى كِدْوِةْ جْبَلْ اِلشْعَانْبِي، وِسطْ غَابِةْ بُو شِبْكَهْ، عَلَى حَافِةْ اِلبِرْكْ، جَايْ مِنْ سِيدِي حْمِدْ، عَمَّارْ تْبَنَّى أَوْلاَدْ اِلْفِيلاَجْ وَلُّوا أَوْلاَدُو، عَرْسِلْهُمْ بْ جِنْ وِإلاَّ جِنِّيَهْ وجَابُوا طَاشْمَهْ جْرَى، لاَ جِنْ لاَ إِنسْ، كِ تْصَفِفْهُمْ وإِدَّقُّوا بْ حْوَافِرْهُمْ ويُضِرْبُوا عَلَى صْدُورْهُمْ ويْزَهْرُوا:
«قسما بالنازلات الماحقات / والدماء الزاكيات الطاهرات / والبنود اللامعات الخافقات / في الجبال الشامخات الشاهقات / نحن ثرنا فحياة أو ممات . . . / فاشهدوا، فاشهدوا، فاشهدوا»، إِيْبُولْ اِلشْعَانْبِي عَلَى رُوحُو تِرْكِشْ لِعْبَادْ فِي دْيَارْهُمْ،

يْسَكْرُوا بِيبَانْهُمْ وشْبَابِيكْهُمْ بـ اِلْزِّفتْ واِلْقَطْرَانْ. لا يُوكِلْ فِيهَا لا مُحمّدْ عْلِي ولا عرش طاطا، هَاضُمْ عْبَايِتْ وْلادْ عْبَايِتْ، يُدْخْلُوا مَا بِيبَانْ اِلظّفَرْ واِلْكَنْتُولْ.

فْرِغْ اِلْفِيلاجْ مـ اِلذكَرْ واِلْخنْثَى ذْكَرْ، مَا تْعِيشْ فِيهَا كَانْ اِلأَنْثَى وأُخْتهَا. في هَا اِلْبَر اِلْمْدعِي، خِمْرتْ الصّبِيّهْ وعَزعْزِتْ اِلشّتِيّهْ، لا وَحْدَهْ فِيهُمْ لَقْحِتْ وضْنَاتْ. رِيحةْ اِلسّرْدِينَهْ تْعَطْرِقْ، إغْيِبْ سِرحِتْ فُوقْ اِلصّرّهْ، اِلضّبّوطْ تَبّتْ تَخْلَهْ. وِينْ اِلزّبّارْ؟ وِينْ اِلزّزّازْ؟ وِينْ لَمْشَاطْ؟ وِينو جْلَمْ؟ وِينْ اِلْمُلْقَاطْ؟ اِلصّبَايَا عَنْسِتْ، شَاطِتْ رِيحِتْهُمْ وطَاقِتْ رُوحْهُمْ. بـ اِلرّيقْ اِلنّاشِحْ، كـِ اِللّيلْ يْلَيّلْ تَسْمَعْهُمْ يِزّوّوا: «يِمّا جِيبِيلِي بَرْكُوسْ، نْضَحّي وتْقُصْ بَزّولِي نِشْوُيهْ».

بِنْتْ عَمّةْ زَهْرَهْ، تْفَتْحِتْ زَهْرِتْهَا مَا بِينْ فْخَاذْهَا، جِتْهَا غَسْلِتْهَا قْبَلْ وَقِتْهَا، مَرِمْدِتْ رُوبِتْهَا. هَامِلَهْ مِنْ سُوقْ لـ سُوقْ، مِنْ بَرْ لـ بَرْ، مِنْ بْحَرْ لـ بْحَرْ، تْلاجِي، مَا تَعْرِفْشْ عْلاشْ تْلاجِي. فُوقْ شِفّتْهَا بُوسَةْ خَالْ، وِلْدِتْ بـ شَهْوَهْ عَلَى مِسْلانْهَا، قَالُولْهَا مَا تِتْنَحّى كَانْ مَا تْلَبّي اِلْدّعْوَهْ. عَلَى أَمَا دَعْوَهْ؟ شْكُونْ إلِيّ دْعَى عْلِيهَا؟

كُلْ لِيلَهْ تِشْتَنَّى النّارْ تِشْعِلْ، تْشُوفْ خْيَالْ طْوِيلْ. كَانْ لِيهَا تَطْلَعْ تْشُوفْ وَاشْ ثَمَّهْ؟ شْكُونْ هَا اِلقْضَاءْ إِلّي الْقَصْبَهْ تِشْكِي بِينْ يْدِيهْ؟ فِي لِيلَهْ مِنْ لْيَالِي اِلعْزِرَّهْ، تْلَثْمِتْ بِنْتْ عَمّةْ زَهْرَهْ وغَنْجِتْ خْدّيهَا ولِبْسِتْ بَرْنُوسْ إِبِّيهَا وهَزّتْ مْقْرُونْ جِدّتْهَا تُرْكِيَّهْ. شَدّتْ اِلصّعْدَهْ وشَقّتْ لِفْيَافِي، فَاتِتْ اِلْقَلْعَهْ، وِصْلِتْ لَثْقَارْ مْحَامِيدْ، طَلْعِتْ عَلَى جْبَلْ بُو لِحْنَاشْ وحَدْرِتْ وهَبْطِتْ وطَلْعِتْ لـ بُو شِبْكَهْ. كُلْ مَا تْقُولْ وْصِلتْ، يِبْعِدْ عْلِيهَا اِلْمِضْرِبْ. وِصْلِتْ عَلَى غِرَّارَهْ: «هِزْ يْدِيكْ، مِنْهُو إِنْتَ؟ إِنسْ وِإلاّ جِنْ؟». نَحّتْ بِنْتْ عَمّةْ زَهْرَهْ قْنُورْهَا وشَافُوا إِلّي تَحْتْ مَلْيِتْهَا وشَمُّوا رِيحِتْهَا، أَنْثَى أُمْ لِمْصَايِبْ إِلّي خْصِبْتْ الذْكَرْ وحِبْلِتْ بـ اِلخَنْثَى ذَكَرْ. يْبِسْ عَمّارْ فِي بْقِعْتُو كـ الْعَسِكْرِي وتِسْحِرْ. شَافْ اِلرّمّانْ، هَبّطْ عِينُو، عْمَاهْ الشّقْ وإِتْخَيّلْ رُوحُو شَاعْلَهْ مِيقُودَهْ. دَارِتْ لِعْبَايِبْ ولَرْوَاحْ واِلغُولَّهْ وجِيشْ اِلخَنْثَى ذَكَرْ، صَارْلْهُمْ مَا صَارْ لـ عَمّارْ جِمْدُوا كـ اِلصّنَبْ، لا وَاحِدْ جَرّبْ يْقَرّبْ. رِيحةْ لَنْثَى سَلْسِلِتْهُمْ. لَنْثَى بِنْتْ بَشَرْ؟ إِنسْ ولا جَانْ؟ لا هَذَا لا ذَاكْ، خْلِيقَهْ عَلَى رُوحْهَا، لا طِينْ لا نَارْ لا نُورْ. صَلْصَالْهَا مِنْ صَلْصَالْ زهرهْ. مَا تَعْرِفْشْ شْكُونْ دَلْهَا وعَلّمْهَا

كِيفَاشْ تِتْوَضّى. غَسْلِتْ رَاسْهَا بْ الطْفَلْ، دِهْنِتْ بْدَنْهَا بْ العَطِرْشِيّهْ، سَوْكِتْ، كَحْلِتْ، بَخْرِتْ، حَرقْصِتْ. عِينْهَا جْمَرْ أَسْوِدْ، الْخَشَمْ ضْرَيِّفْ، الشْفَايِفْ شْرُوبُو، مَضْحِكْهَا كِ لَعْجِةْ البَرِقْ ورِيحِةْ بَخْرِتْهَا لُوبَانْ ذْكَرْ، الصْدِرْ فَايِرْ، الزْنُودْ زِبْدَهْ، الصْوَابِعْ طْوَالْ والظْوَافِرْ مْقَلْمِينْ، التْرّمَهْ لِيّهْ، لَفْخَاذْ حْرِيرْ والْفَارَهْ شْهَدْ. رِيحِتْهَا هَجِّتْ لَرْوَاحْ ولَشْبَاحْ ولْمَوَاتْ، رَوْحُوا لـ الجَبّانَهْ ولَعْظَامْ في القْبُورْ وسِيدِي حْمِدْ الصّالِحْ تِنْفَضْ وتْرِدْمِتْ اللّعْمَهْ. مِنْ غِيرْ قُدْرَهْ فَاعِتْ الشّهْوَهْ مِنْ مِسْلانْهَا. مِنْ غِيرْ قُدْرَهْ نِبْتِتْ الذّكَرْ فَغّمْ بْ الشّهْوَهْ. عَامْ وعَمّارْ يَحْرِثْ في طَبّة بِنْتْ عَمّةْ زَهْرَهْ عَ ضَوْ الزّهْرَهْ.

يَا أُمْ السّيسِي رَجّعْلِي بْعِيبِيصِي.

عندما تدركك اللّعمة.

ما الفصل بين اللّعنة واللّعمة؟ لا تسأل. عربة الفهم معطّلة. ربّ ضارّة نافعة. العين ترى الأرض منبسطا والعقل يكوّرها. الخير والشرّ ممزوجان. لا مفترق. تهافت التهافت*. ماء الفرق، القول الثّقيل.

للهنود الصفر، ذوي عيون اللّوز، كتاب الكاراما، يين

* تهافت التهافت لـ ابن رشد، ردّ على تهافت الفلاسفة لـ أبي حامد الغزالي.

ويانغ، النفوذ الأسود والنفوذ الأبيض، الباطن والظّاهر، الخفيّ والمكشوف، ماإليك وما عليك، الشفع والوتر، المتسترّ والمعلن، المقدّس والمدنّس. ماهذا لماذا؟ التوأم، قُبلة السؤوم. الطاء قبالة الطاء، وجها لوجه، اللاّمحدود، اللاّمنتهي (∞). أَوليس السرطان خليّة تمرّدت؟ غدك تحدّده الصدفة، ككرة المضرب على عصابة الشبكة، إمّا تَضْرِبُ مضربك أو مضرب ضاربك. من يحدّد وزن الضربة؟ عصابة الشبكة، طبعا. الصعود إلى الهاوية أو النّزول على السماء. طاء يجري من تحتها الماء.

لو لم تقطع زهرهْ مُشال عمّار لقعد على مؤخّرته كأجداده في خمسين ألف عام من الوحشة، أيّام المطر، في حيّ الأكراد، يعدّ الخرفان وينشّ الذباب. زهره أعتقته من الوتد ووهبته التهْيام. لم يعد مشدودا إلى ردفها، هاج وماج وعظُم. هَوَى في الهوى، الهواء.

مبتور المُشال، خفيف الطاء، عابر الوطاء، ينتقل بين ضفتي الماء. صاعدا على بُراقه، يرى ما لا تَرَاه. أن تطهّر المُشال هو العذاب الأليم. أَوليس العذاب عذب؟ العذاب اللّذيذ وعذوبة اللّذة. كذب أبو المسعدي ولو صدق: «الآن علمت وعلمت أن اللّذة لا تُغلب».

من شرخ اللعنة الدامية تصوّت النعمة. «إذا سألتم الله

فاسألوه البخت». بخت عمّار في ما اعتقدتموه بخسا. حسناته من سيئاتكم. صدق مختار ميكانيكي كَوَزَكِي: «كَانْ مِشْ مِنْ عْمَاهُمْ مَا نْعِيشُوا مْعَاهُمْ».

غاب عمريطا عن أنظار أشعب وخلاّنه وذويه والحمقى (ما أكثرهم) والتجأ إلى المعصومين من السفالة والسّفه، هناك، حيث الشرّاح والمفسّرون والمولعون بسحر الحبر على الصحف، على دين يحيى، البرامكة، يقرؤون ويكتبون ويجادلون وينشرون زينة الخزائن وزهر المدائن، تَمَتْرَسَ وتمرّس ومارس السّباحة في جدول اللّفظ وصيد الماء والعدوِ وراء الحروف التّي تسابق النيّة في فعلها. جلس إلى كبار السحرة، أخذ عنهم عرفان الجميل. درس الارتفاع بالماء. صام الظّاهر وغدا الباطن، إلى أن اتّضح له المغشى، اشتدّت عينه ولاح ماؤه. آن الأوان للصانع ليصنع رائده ويحلّق من حوله مريدوه.

اغتسل وحلق وارتدى أغلظ الصّوف وتحلّج، ثمّ صعد على صخرة الشطرنج ليشهد العالمين، يحيا المعلّم. «من لم يكن له معلّم فإمامه الشيطان». حيّوا يحيى. «أيّها الأمير كوتوزوف هبنا للمجد»[1].

---

1 عن ليون تولتستوي من رواية «الحرب والسلم»

كقصص الإنس والجان والحيوان، كليلة ودمنة وبيدبا، ذهب عمريطا في خلط العلوم بالمعرفة والفنّ بالأدب، عقاقير السمّ والعسل، مرهم الذّكاء والدهاء، كيمياء السوائل وفيزياء الصلب، تعاليم الميتيفزياء وجبر الفلك. غدًا في الطاء، سائلا متسائلا عن آباء الوطاء، الزمان والمكان، الخرائط وعقارب الأسطرلاب، التاريخ والجغرافيا، ڤايا وكرونوس، ما قبل الأولمب والطيطانيّون وربّ البرق الأصوليون مسنّو السُنّة والضاد، أهل الصفا الأشدّاء. قارّة أطلنطا.

تعلّقت همّة عمّار بالطاء ولم يجد للماء وقوفا. حاد عن المُشال والمرفوع وغامر إلى ما وراء السّكون. على ظهر الزّرقة أقود السفينة ولا أحيد عن غرضي، أكتشف أطلنطس. «مَا أَضْيَقَ الْبَابَ وَأَكْرَبَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ، وَقَلِيلُونَ هُمُ الَّذِينَ يَجِدُونَهُ.» (مَتَّى 7 : 13 – 14). عاد مذهولا من الهَول. هناك، سبعة أكوان، أكثر، تدور مع الكون، كون الصاد وكون الطاء وكون الضاد وكون الألف وكون العين وكون الغين وكون الجيم وكون الخاء. «اذا علمتَ فالزمْ»[1]. اكتفى واختفى. الفهم أن لا تفهم.

لـمّا يتعطّل اللّسان وتعجز الأيادي التي تتكلّم وتُغمض العين،

1 أبو يزيد البسطامي، يلقّب بسلطان العارفين.

تأتي الصدفة حبيبة الصبر، تجازي السائل بشربة ماء.

في جبل سيدي البوهالي، مرقد سيدي حمد الصالح، قبل نقل رفاته حذو المدرسة، انزوى عمّار وتزهّد في داموس الثعلب، يصوم عن السؤال ويشحذ من الانتظار الهداية. ألَا تهتد أيّها السائل؟ كُفّ عن السؤال واُكتبْ بعينك فانَظرْ. «نازلاً من نحلة الجرح القديم إلى تفاصيل البلاد / وكانت السنةُ انفصال البحر عن مدن الرماد / وكنتُ وحدي / ثم وحدي / آه يا وحدي»[1].

نبشت الحجر الأبيض بالديناميت، سلكت دواميس المنجم، أخرجت من بطنه الفِرْثَ والصديد، وتناسيت أن النّفيس لا تسله إلا يد سائبة، طاء لا تُشال، ضاد تنصّلت من العضد، سافرت إلى السعير، احتست المكروه، لامست جمرة الأفق، صقلت أنياب الماء، لجمت البُراق، صافحت الذّيل، دوّنت الفضيحة، ثم عادت من المهلكة وحطّت خائبة.

يا أيّها السائل، هلاّ أكلت وشربت مثل الملوك ثمّ تركت المأدبة حامِدا، أم في السؤال لا تزال جشعا كالحشم الذّين تحاشاهم البخت؟ يا أيّها السائل، هلاّ ركبت الخيل وشهرت القنى فى وجه الليل وهمت في البيداء، أم اكتفيت بعيش الفأر في

---

1 من قصيدة أحمد الزعتر لـ محمود درويش.

الجحر، خوفا من مواء الهرّ؟ يا أيّها السائل، هلاّ لبست الحرير وأنفقت مالك في الرقص أم اعتكفت إلى جوار الفقر وعيّشت أبناءك في الغمّ؟

أَيئنّ السائل بعد السؤال أو أَنَّ وقع الحسد على العظام حيّ حتّى في اللّحد؟ يا أيّها السائل، هلاّ تعلم أنّ السؤال يمتنع عن الجبان منذ المهد، إلاّ الشجاع يدخل عليه قبل الرّسل، دون التوسّل؟

جحا

«أين التفّاح؟ أين الخبز الفوّاح؟»[1]

في سجن المعرّة خمسون سجينا وخمسمائة حارس. كلاب الحراسة تأكل اللّحم وأنت تحلم بدجاجة سمينة. خمسة نوافذ و خمسون قضيبا. الشمس تدخل إربا إربا. الشتاء لا يكف على طرق باب الحديد والأسرّة تصطك أسلاكها من شدّة البرد. من الطّارق؟ لا يدخل علينا من لم يكن سائلا متوسّلا متسوّلا سيولة الماء.

في السجن، سجينان، المسألة والمسؤولية، من حلقومهما لا يطلق إلاّ سراح الأنين والمواويل: «في البحر لـمّا فتّكم / في البرّ فتّوني / بالتبر لـمّا بعتكم / بالتبن بعتوني»*.

1 من ديوان اللحمة الحية لـ صالح القرمادي (1933 - 1982).

* موّال مصري قديم.

أعلى قمّة جبل سيدي البوهالي كاف، قلب الكاف فوّهة، في الفوّهة صدر، في الصدر عمق، في العمق بئر، في البئر قاع، في القاع ترقد مياه رقراقة، في الماء آفة تحرس البرق من البرق الساقط قبيل الطاء، سقطت جوهرة سوداء، تِلْكُمْ قلب فاتنة أماتَها الشوق. هلاّ عثرت عليه؟

صعد عمّار صخرة الشطرنج وارتدى جبّة الطيّب وصاح كديك عربيّ: «شُولُومْ شُولُومْ» سَبْعَ مَرَّاتٍ (كليلة ودمنة، باب بَرْزَوَيْهِ، ترجمة بُزُرْجَمْهر بْن البختكان، النقطة 24).

«يوم الجلطة، في داموس الثعلب، بُعيد قهقهة جحا، هاتفني البرق من عسكر العرش، مرفوع من ركن أركان الجيوش التّسع، أخي محمد علي. المرغوب، الحضور لثكنة الزيّ، لأمر يهمّ، فرقة سين جيم، المعروفة بـ ص 1، تقليص لكلمة صلة أولى.»

وشاية طازجة، لم تلكها العنعنة، من مصدر موثوق. من وشى بعمّار؟ جحا؟ أمّه مهرية؟ أبوه همّام؟ أو الدرّاجة الناريّة كَوَزَكِي؟ عِلْمِي عِلْمِكْ. عمّار في الورطة، مطلوب من عرش طاطا.

«لم أفكّر قطّ ولم أتمحّص في الأمر كثيرا، قرّرت عدم تلبية البرق. لن أحضر. أنتظرهم مرابطا على مبدإ الرفض. رفض

غير قابل للتفاوض».

أن لا تذعن لأوامر طاء طاطا، ثمنه أن تعيش التأهّب والاستنفار.

«أقدمتُ على كسر واجب الطأطأة والـ نعم، عليّ إذن أن أرقب ردّ فعل طاحونة الهواء، التّي لم تتعوّد، قطّ، الصدّ والخروج عن الصفّ».

«عالم بما في صدورهم، لغو ولهيب. أظنّهم، في ثكناتهم، هائجون، مائجون، كالثور المخصيّ في مُشاله. كيف سوّلت له نفسه أن يتطاول ويتكبرّ؟ سنذيقُه المرّ ونُرجعه إلى أرذل العمر».

«لـمّا أقدمتُ على ما أقدمت، كنت واعيا بما صنعتُ وبما سيحدثُ، غضب ربّ الجهاز وسخطه. أعرفُ أنّه لن يفكّ حتّى يُدفعني ثمن ما ارتكبتُ. في كلمة، لن يكفّ أخي محمد علي، عميل عرش طاطا، عن مطاردتي، حتّى يقع اختطافي والقبض عليّ. اختطافي أشرف لي من أن أسلّم نفسي وأسلّم بقوّة الجهاز».

«لي موقف صارم من البرق، بحكم معرفتي الدقيقة لهذا الهتاف المقترن بالمكائن المجترّة لابن الانسان. كلّما أتى الحديث عن العرش، يبقى البرق ختم الدولاب بالشّمع الأحمر».

في هذه الماكينة، يُحشر ابن الانسان، المسلوب من ظلّه ويُطحن كقطعة صابون، ليستخرجوا منه ما يشاؤون، طائع يعترف بعلويّة خاتم البرق. واجب الرضوخ والولاء لعرش طاطا قهّار الماء، والقهّار هنا، كرسيّ يجلس عليه وطواط أعجم، الكوميนداتور، النومونكلاتور، ينبوع الأمر ومصبّه سريع التنفيذ. يبقى الزّمان أكبر مؤلّف عن هاتف البرق.

فلان، أيّ فلان، وقع برقه من طرف الجهاز، بلا سبب ولا تعلّة، فقط، حسب هوى جلالته، يدخل الدهليز، ورشة الإهانة والتحويل، يقع مسخه إلى بعوضة، خنفس عارٍ من رأسه إلى أصابع قدميه، طاء يُنتشل منها المُشال ويُكسر المرفوع ويُنصب المسكون، ينتظر خمسين يوما، على ذمّة الجهاز، تحت رقابة عيون تسلخ جلده وتلبسه الذنب، قبل حصّة التحقيق في ما أُبرق من أجله: «لماذا أكلتَ البارحة الضفدعة الخضراء؟ لماذا قبّلتَ حَجر المرّيخ في المنام؟ رأيناك تنوي السّفر إلى أطلنطا. قِرْ يا واطي».

هل ثمّة عاقل في غرب المتوسّط، يقبل استدعاء الاعتباط؟ المثول للاستدعاء والذهاب إلى ثكناتهم كالارتماء في جحر الأفاعي. «أتذكّر، لّما كنت في حضرتهم، أيّام الفيل، كيف أصبح لساني يتطعّم طعم الحديد وأنفي يشتمّ رائحة الرّماد

وعيني ترى الظلام كأنّما انطفئ النور، والقيء يفيض».

البرق، ناب دراكولا في العنق، هراوة زوس اللّيزر، ليس سوى ضربة البداية لساعات العجن المسترسلة. يفتح في وجهك يوم العذاب على مصراعيه لتحجّ إلى قيعانه وتذوق ما ألذّ.

استنطاق، تعليق، كهرباء، كلّاب، قارورة كْرُوشْ، سطل الخراء، ملقاط الأظافر، طفي السجائر على العين، تليه الأغلال، إيقاف، محكمة فسجن.

تلك هي فسحة من نزلت عليه اللعمة. لا تفكّر للحظة أنّ هنالك مسرب أو مخرج. ذلك هو الصراط المبرمج من عرش طاطا، الذّي لا بدّ أن يمرّ به كلّ من اختاره الجهاز وانتقته القرعة وهاتفه البرق.

بعد البرق، قال عمّار ما قال في الهاتف: «هذه المكائن تجترّ سلاسلها، فلا تَصرف النظر عن معدنها. وهات كفاح كافك، أرشدك كيف تصافح يمين الهؤلاء*. وأطلق عنانك للكبوة ولا تكبح صهيل جوادك ففي عناقه فدائي»**.

لماذا تغافلتَ عن الجهاز؟ كان في وسعك، لمّا صار ما صار وبُتر ذيلك وهِمْتَ في الخلاء أربعين وتَمَترْسْتَ ومارست الجودو

---

* الهؤلاء، رواية للكاتب المصري مجيد طوبيا.

** من قصيدة كنّبعل للمؤلّف.

والبوشيدو، هاغاكوري، أن تتحاشى الورطة في الطاء وتقول فهمت وتؤدّي اليمين زورا. فات الأوان. في حوزتك الجزاء يا بهلول. لا شربة ماء للعطشان.

ارتعد حجر الداموس من قهقهة جحا: «أتظنّ أن الغول خرافة والجبل لا يتحرّك؟ اللّعمة عليك». الوهم راسخ والتنّين يترصّد. الهفوة تُلحّ. اعتصر قلب عمّار وتجمّد الماء الثّقيل في مُخه. أغمي عليه من ضغط السؤال وأستسلم للماء الجبّار. «هل تسوّلتُ منك الفهم؟ جحا، كُفّ عن النباح. نفسي راضية مرضية مطمئنة. «قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ» (المائدة 102). اتركني في حالي، لا توقظني».

في وضح الداموس واشتداد بياض السّاعة، برقت طاء المثنّى، طاء أطلنطا المهول، طاء غول عليه شلطتان عموديّتان، طاا، في شكل مَضْحَكِ زهرهْ تحت الصرّة، طاا ولاّدة، مُنجب المسخ، حرف لقيط، لا أصول له في اللّفظ، أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخ ض ذ ظغ، الحرف الوتر، الواحد بعد الثمانية والعشرين، تلفظه كما تلفظ الضاد، طاء ملقّم بطعم الضاد والصاد، تخرجه من البلعم، ضاغطا بأسنانك على اللّسان الطريّ السّمين مفتقد الفقرات فينفجر ضرطة من القعر، نتنًا كالغثيان: طَادْ.

خذْ نفسَ المشنوق من شفرتيه والِفظ الشفع، الإصبع التاسع والعشرون، عدد أوليّ، لا يقبل القسمة إلاّ على نفسه، سيندفع من خنقك، تنهيد يكرّر طاء وواوا وفاء ونونا: «إنّه الطوفان أيّها الحوذي. ليقينا الربّ»[1]. نَحْتُ الكرّ والفرّ، سقوط الرّاء، صنم الكفر.

الطاء قبّة مكوّرة، على منصّته صومعة منتصبة، قوس متوتّر، منفوخ كالكون، بيضة بيضاء، ثدي مُرضع، حُبلى، خطّ مصطفّ من اليمين إلى اليسار، مهذّب، يؤدي التحيّة للسّطر.

الطاد بالونة مفشوشة ضيّعت النّفس، مُشاله منكوس، خطّه رديء، مقلوب، معوجّ، ينتهي بتعرقة ص ذابلة، ذيل زاحفة عند الانفصال، محراب السَّبت، طين مبلول، صلصال لم يجوّده خزّاف، على السليقة، كما أخذه زُغلام من نيل طنطاوين، هجين، دارج، سوقيّ، لقيط المجاري، غوْلم مقزّز تعافه العين. إنّه الآخر، المنبوذ، الحُوشِيّ، الغريب، الدخيل المنقلب على عرش طاطا، المبعوث فينا. طاد المقفّع، ابن المقفّع.

عمّار فهم وغَفَا. طحنه الخسّ. بقى على دين وطائه وابتعد عن طريق البريّة البربريّة، غرب المتوسّط.

عاد الطاد إلى طينه، كافرا بالسّفيه، عمّار الجبان. بـ الشّلحِهْ،

---

1 من رواية بنت القبطان لـ ألكسندر بوشكين.

وْهِڤْ عمريطا، اِجْفِلْ.

خرج عمّار يجري، يسفّ التراب، متنصّلا من الصلصال، ناكرا أبوّته للطاد، لا يعترف بروابط الإشارة وتأصّل البدعة فيه. عديم المسؤولية. تنكّر لجدّه يحيى: «لم أكتشف أطلنطا. أطلنطا في الحفظ. اغفروا لي فضولي».

أعظم مطاردة لابن الإنسان.

شاع الخبر في المذياع وعلى الشاشات وفي الأنترنات. الاستنفار الأبيض. عمّار مطلوب حيّا أو ميّتا، وَانْتِدْ. برق البرق و«رمت معاطفها الجبال» وابيّض ليلُ طاطاوين من شعاع الطّارق.

«ادخلوا ابرة في عينيه، صبّوا الزفت الحارق في أذنيه، اسلخوا جلده، ارموا به إلى ما وراء السؤال، ادفنوه حيّا، اردموا طاده. إنّه الدجّال، وليّ الفضيحة. الوسخ والمسخ هبط في دار الطائين ولطّخ المُشال. كَلْبْ بِنْ كَلْبْ، عمريطا، اِلْخْنْتَى ذْكَرْ، قَوّادْ زَهْرَهْ، وِلْدْ هَمّامْ اِلْعِرْيَانْ ومَهْرِيّهْ الزّرْقَهْ، مَزَّقَ البرقيّة؟ خطر علينا. دقّوا النواقيس وقيموا الأذان وانفخوا في البوق: «الوطاء في خطر».

العرش أخطر.

ضحّوا به على مذبح آلهة الآزتك وذرّوا رماد جثمانه في

الأطلنطي. انفوه في غوانتانامو حتّى لا يستدلّوا عن مكانه، سدّوا النوافذ واغلقوا الأبواب ودقّوا الحواجز واعلنوا حظر التجوّل في طاطاوين وسنّوا دولة الطوارئ. اغلقوا الحدود والمجال الجوّي والبحري. احشدوا الجيوش. دسّوا الجواسيس. اعزلوا البلاد. احرقوا الأرض. دمّروا البيوت. اقطعوا الطرقات. انثروا الملح على غرب المتوسّط. عاقبوا الأشجار والنّحل والسّاحات والاتّجاهات والمسافة. قيموا على الكاف الحدّ. الطاد تتسرّب.

اضربوا من حوله الخنادق. ارجموه. مثّلوا به. افصلوه عن ذويه. حرّروا فيه برقيّة جلب. اودعوه في الدهليز، يأكله التمساح. صبّوا على قبو الثعلب الاسمنت المسلّح. عمّار حيّا أو ميتا. توّا توّا.

محمد علي، يَا وَزِيرْ، دَبِّرْ وإلاّ رَاسِكْ يْطِيرْ. استدرجه، اعطه الأمان، هِبه هنشير البزّازيّه (مَهر بنت عمّة زَهرهْ غالي) واحضره قدّامي لأنكّل به وأعلّمه الطاء من الطاد».

أخطأ في حقّ عرش طاطا عليه أن يسدّد.

الفضول أصل البلاء. الفضول وباء. خطيئة عمّار أخطر من الجريمة. شرك وزندقة وبدعة ونكران وتكذيب لدستور طاطاوين، أطلنطا، قارّة الطاء. كشف عن المسكوت عنه وأباح

لنفسه المحرّم وشكّك في الطوطم.

مباح لك تفتيش جيب الثروة والسّخرية من الجاه وفشّ عجلة الهيبة والبصق في وجه الأبّهة والتجوال في أزقّة النفوذ وعلياء العنجهيّة، لَكِنْ يمنع منعا باتا الاقتراب من طاد أطلنطا جوف الصفر، القلب النابض، المحرّك الذرّي، سرّ الدفاع، الدردور، عماد العرش وحديده، بَانْكَارْ من الاسمنت المسلّح.

ممنوع الاقتراب من هالة العرش وبهرج الحديد والناموس الذّي يدور في فلكه وهيلمان الجالس على الكرسيّ، المتورّك على بيضة الرخّ، الدّهر الكارك.

لا بقاء للجالس إذا ما اتّضحت الطاء من الطاد وانكشفت الكذبة وانقشع دخان الوهم اللّزج، خيوط مسرح البَزْم وكوميديا الفزع، أسطورة أطلنطاوين.

خرافة أطلنطس أوجدتها، منذ البدء، عقول الدهاء ونفوس المكر، خلاّن الخنّاس، ليستمرّ طاطا الوطواط في التمعّش، قاذفا بها لقمة وملهاة تتسلّى بها جمهرة المخدوعين. لو لا كذبة أطلنطا لما انطلت على الأرضة حيلة عرش طاطا خمسمائة ألف عام.

أطلنطا، بيضة الرخّ، الكأس المقدّسة، ذو الحربتان، الاكسكاليبور، الافتراض المتسلّل، الوهم الجامد، دستور المُلك المنفرد آكل الكعكة لوحده، كابح اللّسان، صمّام الأمان،

قيد الأيادي التّي تتكلّم، طلّاس النظرات والعبارات، كذبة مهلة أمهلت سقوط أطلال العرش الخاوي. هو هو. هو مَن هو؟ لا تسأل وتتورّط. تلك هي المسألة. «يا أيّها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» (المائدة 101).

لبّى عمّار الدعوة وطأطأ رأسه لمحمد علي السيّاف، ظنّا به خيرا وأخوّة وطمعا في هِنْشِيْر البَرَازِيّهْ، قرب وادي سرّاط، سفح مائدة يوغرطا.

في كل الأحوال عرش طاطا يعاقب، زلّ لسانك أو لم يزلّ. العقاب مبتدأ حتّى وإن كانت الجريمة غير متصّلة بالحجّة. لا ترتقي الأخوّة إلى مصاف الولاء. البقاء لعرش طاطا. الغالب لا يذكر له نكسة.

عشْ للطّاعة تمت كريما.

في سيدي حمد الصالح مازال الموكب يناجي: «أطلنطا... أطلنطا» وصدى جبل سيدي البوهالي يُعلي: «مخدوعون لآلاف السنين، آلاف السنين مخدوعون». انطلى الطاد.

هيّا بنا كَوَزَكِي، نوحي، جمّعْ من كلّ حرف زوجا وأسفنهم على فُلكك، شقَّ بي الحدود زقفونة[1] عكس التساوي (=) وأصعد

1 زقفونة، لفظ من ابتداع المعرّي. قال: «ستٌّ إن أعياك أمري فاحمليني زقفونه». وحين سئل وما زقفونه يا أبا العلاء؟ قال: «أن يحمل الإنسان إنسانا آخر خلفا لخلف. أو ظهرا لظهر ويمشى. الحامل يمشى إلى الأمام أمّا المحمول فوجهه إلى الأمام ولكنه يمشى إلى الخلف».

صعد التوازي (||)، ترى الطاء طادا. ما الطاد؟ الطاد أن لا طاد.

الكرَّة الآن.

قصدت طاطاوين لأمر لا يهمّ.

الفهـــــرس

من إصدارات عيون المعاصرة

آمنة الرميلي الوسلاتي
الباقي...
تقديم : عبد الفتاح إبراهم
حكاية جيل كامل بما فيه من متناقضات وما حمله من أفكار و آمال و انتظارات من وطن لم يقدم لهم سوى الخيبات، شخصيات متنافرة ، مختلفة ، تلتقي و تفترق ، تتقاسم الأمل و الألم و البحث عن غد أفضل ، بين الماضي و الحاضر ترى هل من باقي للمستقبل

الهادي التيمومي
ملحُ قرطاج
تقديم : توفيق بكّار
«لو استحضرت المخاض العسير والظروف الصعبة التي خفّت بكتابة هذا الأثر الأدبيّ، لكتبتُ رواية على رواية، وربّما أكثر طولا وتشويقا، ولوضعتُ بين أيديكم حديثا غريبا، السّند فيه والحواشي أهمّ من المتن ...»

عبد الحميد الراعي
في انتظار الساعة الصفر
«... ساعة الصفر، بداية قرن جديد، نقطة فاصلة بين زمنين رجل سلطة يغوص في عالم الدبلوماسيين يعرّي همومهم ومخاوفهم كاشفا انتظاراتهم وخيباتهم وأسرار عالم مليئ بالإثارة والتقلبات...»

رياض معسعس
حمّـام زنـوبـيا
تقديم : توفيق بكار
«... سوريا أرض تُستباح، تنتصب ويزج بأبنائها في جحيم السجون، يعذّبون ويقتلون، مأساة شعب طامح للحريّة والانعتاق من الدكتاتوريّة...»

الشاذلي مبارك
الحرقــة
تقديم : جمال الخليفي
«... شباب بائسون خيّروا «الحرقة» هربا من واقع مُر قسى عليهم وأشبعهم خيبات وانكسارات، حلموا بزوجة وسيارة فلم يجنوا غير الموت...»

منصف الوهايبي
عشيقة آدم
تقديم : صلاح الدين بوجاه
«... رواية فايسبوكيّة لعلاقة افتراضيّة، رجل وامرأة لم يلتقيا، يختفيان خلف صورتين مجهولتي الملامح ليتعرّ أحدهما أمام الآخر ويفجر ما في أعماقه وعقله الباطن...»

حسين الواد
سعادته... السيد الوزير
تقديم : شكري المبخوت
«... معلّم يجد نفسه بين ليلة وضحاها وزيرا ينفّذ مهمة بيع الوطن، يتاجر به ويفصّل القوانين وفق رغبات السرّاق والقوّادة...»

نور الدين العلوي
تفاصيل صغيرة
تقديم : أحمد الودرني
«... رحلة شاب يغوص في تفاصيل مجتمعه يعرّي علاقاته المشبوهة وهشاشة مؤسسات تتاجر بجوع أبنائها...»

حسين الواد
روائح المدينة
تقديم : صلاح الدين الشريف
«... يحملنا الكاتب الى مدينته لنتعرّف عليها من خلال روائحها، يتجوّل بنا في ثنايا تاريخها وعبر أزقّتها كاشفا لنا كلّ أسرارها...»

محمّد دمّق
أحلام النرجس
تقديم : خليل قويعة
«... ذكريات حب جميل يطير بك بعيدا فتخال نفسك قد وجدت السعادة إلا أنها تحط بك في شقة صغيرة معلقة بالطابق الخامس يجترّ ساكنها مرارة هجر من أحب، تهجم عليه الذكريات تدمر سكينته، تشوه يومه، أينما ذهب، بوجه نرجس التي أحبّ...»

يحيى امقاسم
ساق الغراب
تقديم : فيصل درّاج
«... عالم عجائبي لأرض تَمْتدّ عبر الصحراء وخلف الجبال، تنبثق من رحم الموت حياة ترسم بداية الطريق للوجود الإنسانيّ كلّه...»

حليمة الخميري الباجي
ريحة بوتفاحة
تقديم : نجوى الرياحي القسنطيني
«... في باجة بين الضحكات والعشويّات تتحوّل الوعدة إلى حفلة، تفرغن فيها النّساء والصبايا كبتهنّ وهمومهنّ بعيدا عن عالم الرّجال، تفوح رائحة القهوة العربي ممزوجة برائحة الحكايا، يتجرعن مرارة الفقد وفرحة اللقاء...»

حنّة مينة
الباطــــر
تقـديـم : الرشيد الغزي

«...بين الغابة والبحر انعزل عن المجتمع لكنّه لم يتوقّف يوما عن الحلم والتفكير، «باطر» مشدود لنسغ الحياة، لا يهرب من المواجهة ولا يتوق للنسيان، اندفع عائدا إلى مدينته ليقف أمام ماضيه عاري الصدر تاركا خلفه خوفه وحبّه لشكيبة ...»

أبو بكر العيّادي
الرجل العاري
تقـديـم : البشير الوسلاتي

«... رجل تقذفه الغربة يمينا وشمــالا بين ذكرى زوجة هجرها وأخرى دفعته بعيدا عنها، يجوب شـوارع باريس بحثا عن مستقر، يعرّي نفسه ويواجه ماضيه وحاضره عله بذلك يجد طريق الخلاص من ذكرياته وخطاياه ...»

صلاح الدين بوجاه
لــون الــروح
تقـديـم : العادل خضر

«...بين المنتجع مكان المراقبة والقلعة مكان المعاقبة تدور أحداث رحلة بحث مرهق عن «لون الروح»، عن حقيقة الوجوه المتخفيّة خلف الأقنعة، مدينة في حالة استنفار تنتظر هجوما إرهابيا سيقلق راحة السائحين وينكّد عيشة أهلهم وحكامهم ...»

عبد الجبار العش
محـاكمة كـلـب
تقـديـم : محمد القاضي

«...«عروب الفالت» لم يعرف من الدنيا غير سوادها، فقر، يتم واغتصاب، مثقل بإنسانيّتة كاره لوجوده، راغب في أن يموت ميتة الكلاب لا البشر، عاش مهمشا، ضائعا، وله الحق أن يكرم بالموت فلا رغبة له في الحياة...»

كمال الرياحي
المشرط

يقتلع ابن خلدون قدميه من قاعدة الرصاص،يدخن سيجارة ويروي ذكرى رحيله لبلد «المخاخ» طائر نتن يمتص العقول ويعاشر النساء تاركا في أرحامهن لعنتة

عروسية النالوتي
مراتيـــج

«... صور غائمة، ألم يطرق الرأس ومرارة في الحق، كلّ ماحول المختار مبعثر، هو لا يعي أي حدود بين الوهم والحقيقة، لكنه يدرك أن شيئا ما يناديه يدفعه للاعتراف بهزيمته أمام حب «دوجة»...»

مصطفى الفيلالي
مانعــة
تقـديـم : توفيق بكار

«.... قرية عالقة بسفح جبل، منعزلة عن العالم، راضية بواقع أحكم سياجه حولها، صامتـه لا تشي بماخلف جدرانها، حياة بسيطــة اختزلت في وجــوه ستة رجال هم خلاصــة روح «مانعــة» وعقلها والشاهد على سنوات جهادها ونضالها من أجل البقاء...»

البشير خريّف
برق الليل
تقـديـم : فوزي الزمرلي

«...عبد أسود مثقل بحبّ حسناء، يجوب الشوارع، هائ،ا، يطوّحه وزر مستحيل، يحلم بها وينتظرها، يرسم صورتها في خياله، يتمنى التحرر من عبوديته، من استعمار بلده ومن حبها، يهرب من واقعه إلى حلمه ومن بعدها إلى الانتظار...»

حسن نصر
دار الباشـا
تقـديـم : محمد القاضي

«...يقود الزمن «مرتضى» ليواجه ماضيه، يبحث عن طفولة مقهورة لم ينجح في التخلص منها تتالى الذكريات على وقع أقدامه داخل دار الباشا ليجد نفسه سجينا في ركن تحت الأنقاض يحلم بالرحيل إلى مدنية الضياء ...»

محمود المسعدي
الســـدّ
تقـديـم : توفيق بكار

«...بين إرادة الإنسان ومشيئة الربّ يقــوم الســدّ وينهد والغلبـــة للأقــدار. «صبهاء» و«غيلان» ضدّان لا يجتمعان، كأنهما الماء والنار أو الموت والحياة، يختزلان صراعــا أبديّا بين عظمــة الطبيعة وقوّة الإنسان، قصّة هدم وبنــاء، قوّة عزم وصلابة إرادة ...»

البشير خريف
الدقلة في عراجينها
تقـديـم : الطيّب صالح

«...حكايات من أعماق الوطن، عن الحبّ والتعلّق بالأرض، مزيج من الأفراح والأحزان وسنوات عمر تتهاوى كعراجين النخلة، أسرار وأحلام وحكايات حبلى بصور متنوعة تتراوح بين الجدّ والهزل، بين الحزن والفرح ...»



المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب

22، نهج المقاولين - المنطقة الصناعية الشرقية - أريانة - تونس
الهاتف : 683 837 70 216+ - الفاكس : 975 838 70 216+

الريشة مع الجملة اللولبيّة ضدّ الجملة المحنّطة، واللّغة الميّتة والسُنّة، لغة الأب، اللّغة الرسميّة، لغة حضر صمت...

القلم لا يساوم. القلم يقاوم. يرغمك على قراءة ما لا يقرِأ، سماع ما لا يسمع، فعل ما لا يفعل. يسافر إلى الكفر البعيد المنسيّ، المحكوم بالجوع. من البؤس يستخرج الكفاح السعيد. حيّ على الكلام...

... عندما تلتهم ما في القرطاس وتتطعّم ملح حبره تنتهي راويًا. تُعطي حُكمك دون التفطّن والإلمام بالصنعة. لا تسأل كيف يسوق القلم اللّفظ ويرصّع المكتوب. قُمْ للأيادي التي تتكلّم.

توفيق بن بريك

كاتب وشاعر تونسي ولد سنة 1960 بمنجم الجريصة من أصول قرويّة ومن عائلة نقابيّة. عرف ككاتب مقاوم يكتب من أجل المساواة والتقدّم. نشر في أشهر دور النّشر كـ"إكزيل ڤاليمار" و"لو سوي" و"أبولونيا" وتُوّج بعديد الجوائز العالميّة نذكر منها جائزة "داشل هامت" الأمريكيّة وجائزة "سوسيتا ليبيرا" الإيطاليّة والتي رفض تسلّمها لتعارضها مع قناعاته.
رُشّح سنة 2012 لجائزة نوبل للآداب.
من أهمّ أعماله: الآن أصغ إليّ، ضحكة الحوت، سارق الأدب، وكلبَ بن كلب...



الثمن: 11,000 د.ت.

ISBN: 978-9938-01-077-0

